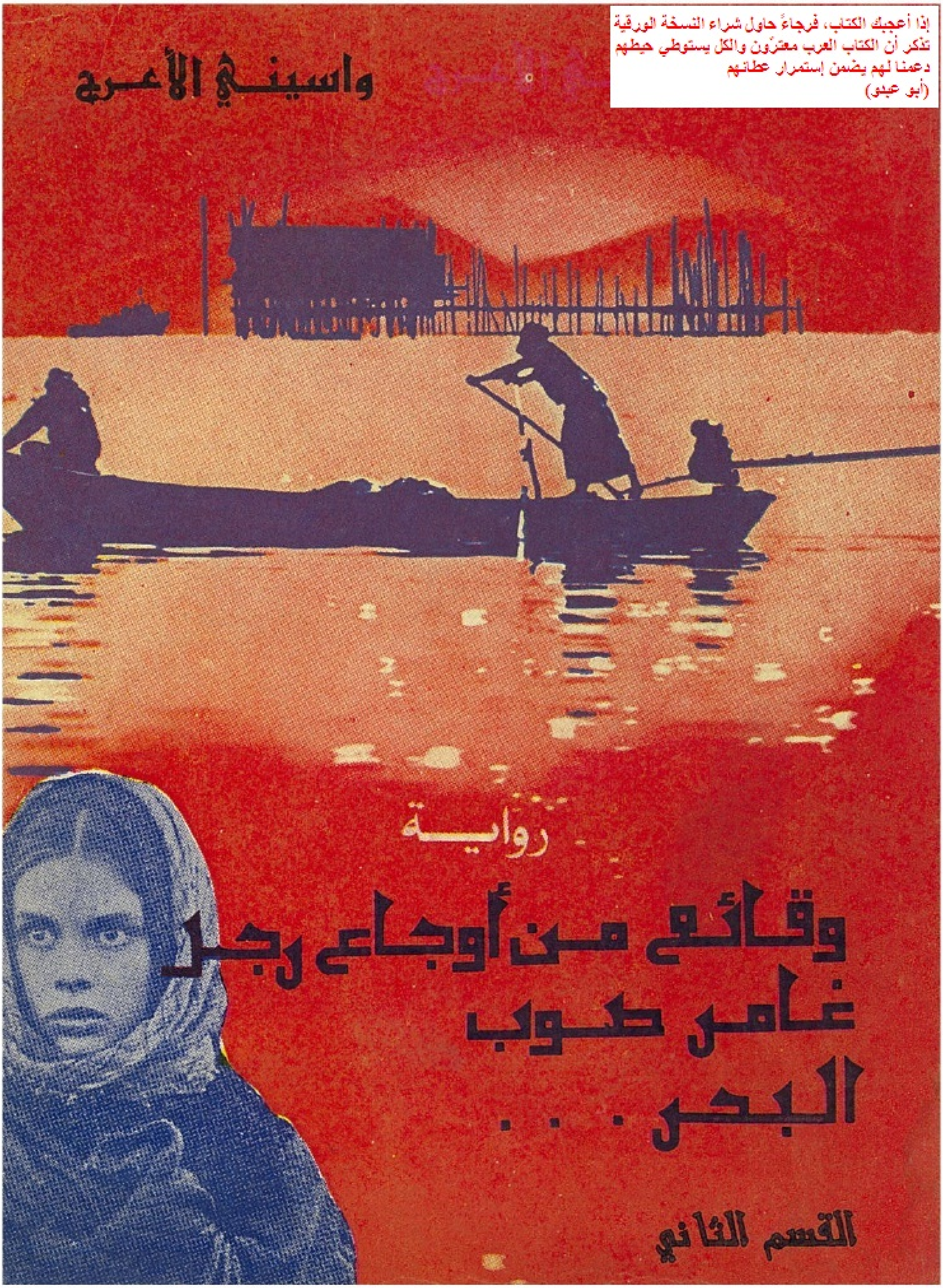

واسيني الأعرج
رواية
وقائع من أوجاع رجل
غامر صوب
البحر...
القسم الثاني

واسيني الأعرج

وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر

القسم الثاني

(رواية)

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق ـ ١٩٨١

... كل قلوب الناس جنسيتي
فلتسقطوا عني .
جواز السفر ..

. م . درويش

ذات صباح

هوا مش الرحلة

- ١ -

لذة الأكتشاف . . الناس « اللّي تحت » . . حفرة..
. . قبو . . كه . . . كه . . وصلناك يازمن الدفن قبل
الموت . . .

« مكان للراحة مثل هذا وإلا بلاش . . »

كل شيءْ مرّ بسرعة . . حتى أبعاد الوقت ضاعت ،
مع بوصلة الزمن . . كل ماأتذكر هوأنّ الأمورمرّت بسرعة
البرق . . عليلو كان على علم بكل شيء .. يسهر بدقة
على تطبيق خطة غاية في الدقة . .

آه ياعاشور . . عليك أن تواجه الآن عالماً جديداً . .
ربّما أقل صعوبة من السابق ، لكن عليك أن تواجهه
من يدري ؟ الطوارىء كثيرة . . وتجري الرياح بما
لاتشتهي السفن . . قد يفاجئك كلب من الكلاب التائهة من
فوق ، ويأتي عليك في مضغة واحدة ، وتنتهي كما ينتهي
أي شيء غير ذي قيمة . . ولا من يسمع خبر موتك . .

خذ حذرك ياعاشور . . آخ . . آخ . . رائحة العفونة.. يبدو أنها جيفة ما ، تتأكل وتتحلل في إحدى زوايا هذا القبر المعدّ للأحياء . . ربما جثة إنسان تتنفس آخر هوائها داخل هذه الرطوبة القاتلة ، وتتنفس براحة مطلقة . .

« الرائحة مهما تعفنت ، فهي لاتصل رائحة الوادي..»

فالصبر إذن هو الحل . . قاوم ياعاشور . . قاوم .. أنت في جنة . . جنة فسيحة كانعالم . .

الأمر مقبول إلى حدّ كبير ، لولا هذا البعوض المسموم ، وهذا القط الذي لاأرى هناك في الزاوية إلا عينيه المخيفتين .. آخ مُواؤه مزعج للغاية . . لعله يترقب منّي متى ألفظ أنفاسي الأخيرة لينقض عليّ ويتسرّع في أكلي ، قبل أن تشم الذئاب والكلاب والقطط الضالة رائحة الجيفة . وتأتي أفواجاً أفواجاً ، تتقاسم معه الغنيمة..

« خبزة وطاحت(١) على كلب راقد . . »

أنا .. قد أفعل نفس الشيء معه لو تواجدنا مرة وجهاً

---

(١) مثل شعبي يقال للانسان الذي يحصل على غنيمة بدون أدنى تعب .

لوجه . . يعوي داخانا جوع قاتل . . في بيداء مقفرة . . أكيد أن أحداً منا سيأكل الآخر . . ولن أتوانى في أكله. أنا عاشور المالدرينا الجائع إذا أستطعت الوصول إليه . . وأتذكر أني فعلت ذلك ذات مرّة حين كنت أتدحرج في فم الموت ، داخل منجم مقفر . . أكلت اللحم نيئاً ولم أنتبه إلا عندما وصلت الحذاء الممزق . . أدركت أن الرجل كنت أعرفه ، قبل أن تقطع ردمة من الأتربة السوداء والصخور ساقه . كانت مالحة ودامية ومع ذلك أكلتها . . بعض الأحيان أوبخ نفسي . . وأخرى أجد أعذاراً موضوعية . .

لكن هذه المرّة مع القط ، المسألة تطرح بشكل مقبول إلى حدّ بعيد . . ومع ذلك ، لاأفكر في مطاردته وأكله ولا أنوي أبداً في هذه اللحظات بالذات أن أترك نفسي هكذا ، طعماً له . . إذا جاءني أو أقترب منّي فقط ، سأحاربه . . أو على الأقل أخيفه ، حتى لايرجع مرة أخرى . .

شيء مايتحرك داخل قدميّ . . نمل . . أسراب من

النمل تدب . . أتحسسها . . أشياء لزجة تجعل أصابعي تنزلق في الفراغ . . كل الالام استيقظت دفعة واحدة .. بدأت رحلة نبض الجروح .. عيون القط ماتزال مثبتة في بشكل مخيف . . قدمي تؤلمني بشكل مزعج . . توصلت إلى نزع الضماد الذي كان يحيط بقدمي . . أحسست بقطعة صغيرة من اللحم الميت تترجرج . . أطبقت أسناني بشدة . . هوب . . نزعتها . .

« إيه ياعاشور . . نصف القدم راح . . »

لحمة . . قطعة لحم مني . . قربتها من أنفي . . تذكرت الساق التي أكلتها مرّة أخرى . . تحسستها برأس اللسان.. نفس الطعم . . لو كنت جوعان لكنت أتيت عليها بدون تريث »

لوحت بها في الهواء . . باتجاه القط . .

فجأة سمعت مواءاً وصراخاً . . وعُيوناً كثيرة تتحرك بخفة . . قطط كثيرة كانت تتقاتل على قطعة مالحة من اللحم البشري . . تأكدت مرّة أخرى أني وسط

عالم آخر . . حتى اللذة الإكتشاف أصبح لها طعم الخوف، والإستعداد لمقاومة ضارية . .

الظلمة سوداء كالقطران . .

مخزن هذا ؟ أم ماذا ؟ ؟

لست أدري . . صدقوا ، أني أنا عاشور الماندرينا الذي وجد نفسه مدحْرجاً داخل هذا القبو المخيف . . لست أدري . . كل ماأعلمه هو أن الفجر باغتنا في هذه البلدة . . مشينا بشكل عادي في ظلال البيوتات الواطئة.. وجدنا داراً . . عليلو كان يعرفها جيداً . . دخلنا من الجهة الخلفية . . كانت تبدو خالية من كل ساكن . . نزلنا من ثقب صغير إلى أسفل . . أو قل تدحرجنا . . تحت ضوء الولاعة . . وصلنا إلى هذه الزاوية . . كان كل شيء جاهزاً . . الفراش . . الغطاء . . العشاء داخل صندوق خشبي مغلق ، والقهوة.. أنا والزمن الآن متحدان.. أنا الزمن والزمن أنا . .

الآلام . . الأعضاء المجروحة عادت إلى النبض بقوة.. وبشكل معذّب . .

آه . . الراحة بعد العذاب . . قمة الراحة . . لو « رقدة» صغيرة . . ساعة فقط . . وبعدها ، فلتكن الرحلة الأبدية.. فأنا مستعد لها حتى التهلكة . . إغفاءة فقط ، وبدون إزعاج ولنعبر بعدها كل أنهار العالم المتسخة . . كل البالوعات.. فلاجل أحلامنا ، مستعدون لأن نلبس أشلاء بعضنا ، لتجاوز المهزلة . . .

ماالمانع ياعاشور . . أنت مسكون بالخوف . . وهذا هو الذي يمنعك من النوم . . نم . . نم ياأخي ، فغداً ستواجه رحلة قاسية ، بكل المسافات المتعبة . . فبالرغم من عذاب المشي والخوف . . أنت الآن في مأمن . . أنت لست أمام محققين أو جلادين . . خذ راحتك . . أظن أنك تثق في عليلو . . وإلاّ ؟ ؟ ؟ . .

« آخ . . لكن لماذا لحظة الارتياح ، تهاجم الجروح دفعة واحدة . . »

هناك ، الإسمنت البارد حين يلامس الجروح يقوي النبض . . والآن وسط هذا الفراش . . وهذا التبن . . . والنبض لم يتوقف بعد . . آخ ، حتى النوم براحة ، داخل

هذا القبو أمر صعب . . وأكتشاف زوايا هذا القبو ، الآخرى في هذه الظلمة من المستحيلات . . أنا عاشور الماندرينا الذي نام في الخلاء وهو صبُي ، وجاع أياماً لاتعد . . ومع ذلك لاأستطيع أن أنام قرير العين في مكان أجهل ماذا ينام في زواياه . .

حاول ياعاشور . . الأمر لايعدو أن يكون أمراً بسيطاً . . أغمضْ عينيك وسترى . . هيا لاتكن غبياً . . هذه لحظات تضيع منك ، قد لاتجدها مرّة أخرى.. حاول . . هكذا . . هكذا . . أهجع لحظة البقية تأتي وحدها . .

آخ . . لكن نبض هذه الجروح يُحرم النوم من عين جمل . .

نقطة دم سوداء تصرخ في الذاكرة . . تسقط بعنف، كالأملاح فوق الجروح المتفاقمة . . ماذا ؟ ؟ ؟

— « أنا . . مصطفى صديقك . . »

— « — قلت لك لاأعرف شيئاً مما تذكر . . »

ـ « أتريد أن نصير مرة أخرى صبية . . »

ـ « ياأخي أتسمع . . حكاية التنظيم هذه لم تدخل رأسي . . »

إيه ياعاشور . . خمسة أيام تحت عذاب التحقيقات.. لانوم . . لاأكل . . لاشرب . . وظلمة عفن السجون . . كه . . كه . . أمور تضحك حتى البكاء . . يقال أن المساجين السياسيين يعاملون بطريقة نظيفة ومحترمة . . القوانين الدولية . .

عاشور ، بعض المرّات تسقط في شباك الهذيان . . أية قوانين ياعاشور . . هؤلاء الناس باسم القانون يقتلوننا.. وباسم القانون يستغاوننا . . تعقّل ياولد البلاد . . فهذه أمور لاتقف على قدميها . .

« ماذا عن التنظيم السرّي . . »

« أنت أجرمت بحق نفسك . . »

« الجرو بن الجرو شيع نفسك داخل هذه الحفرة المظلمة . . » تبدأ العذابات ، أشكالاً وألواناً . . الزبد

يصعد من بطني إلى فمي . . طفل يفتح فاه مع صرخة الولادة الأولى . . الدوائر الصفراء والخضراء والسوداء.. قوس قزح تغلب عليه الألوان الداكنة . . العالم يتقهقر تحت الأقدام ، ويرفس كقطعة قماش بيضاء . . يحرق بفظاعة . . الجبل الكبير يهوي عند ثغور المدينة . . تتفسخ تتفسخ كتل التراب الأسود . . تركبها أشياء بيضاء تتحرك ببطء كالدود . . هو الدود بعينه . . كثرة الصياحات . . الصبية يقفزون . . الوادي . . عمّي المهري . . اللويحة . . زمن الجوع . . عمّي بلخير الديواني . . اللعب . .

« ألنّو صبي . . ماتصبيش علي . . »

الجراح في قدميّ . . النار تتصاعد من رجلي . . أفخاذي . . فأعضائي التناسلية . . صدري . . حلمة الثدي . . فلساني . . فعيوني . . دبيب كدبيب النمل في رأسي . . جسدي كله أصبح كتلة مكهربة . .

أئنّ . . أموء كالقط المضروب على الرأس . . أموت بهدوء . . أحسّ بنفسي أهوي في منحدر كبير . . في بئر لاقرارة له . .

أستيقظ فجأة على ماءٍ باردٍ كالثلج . . أراهم : . ينطفئون . . أراهم من جديد ، يلبسون الأسود . . ببطء ينطفئون : . أحس بشيء ساخن يتزحلق بين فخذي . رائحة البول النافذة . . والماء المتسخ والعرق . وطعم يشبه ملوحة الدم يملأ فمي . . يعودون سوداً كالقطران . . يتلاشون وتبقى أصواتهم . .

« رئيسكم . . . . »

« أنت عضو خطير في التنظيم . . »

« ستموت كالجرو في هذا العفن . . »

أنا . . من أنا ؟ ؟ . . أنا لست شيئاً أيها السادة . . أنا عاشور الماندرينا . . مجرد نقابي بكل همومه وتناقضاته.. كفرد لا أساوي شيئاً . . عاشور الماندرينا الذي يحمل على عاتقه قضية أكبر منه . . لاتصفّى بتصفيته . . أنا عاشور الهارب على الحدود بحثا عن الحدود . . عاشور المقتول من الداخل . . أو يكاد يكون كذلك . . عاشور، الذي حاولوا أن يعدموا فيه النكتة والإبتسامة والفرحة الصغيرة التي لا تأتي إلاّ بالمناسبات . . أنا لا شيء

أيها السادة . . رجل هزيل السحنة ، لم « يشبع كرشه » .. مجرد ماندرينا . . وما أكثر الماندرينا مثلي . . أبيع الأشياء الصغيرة التي أستوردها من الحدود ، بأثمان تافهة لاتسد رمق طير . . لمقاومة الجوع لاأكثر ولا أقل . . وفي أغلب الأحيان أخسر البضاعة التي قطعت من أجلها الكيلو مترات مشياً على الأقدام . . رحلة محفوفه بخطر الموت . . وجمارك الحدود ، يقفون فجأة في وجهي كجان الماء . . عاشور البضاعة ؟ ؟ . . عاشور قف وإلاّ نطلق عليك النار ؟ ؟ يابن الـ . . . أنت تضر بالاقتصاد الوطني . .

صدقوا أيها السادة . . أني لست شيئاً . . فأنا أقل خطورة مما تتصورون . .

لا ياعاشور . . أنت لست أقل خطورة . . وهم يعرفون ذلك جيداً . أنت نقابي . . رجل واعٍ . . والأكثر من هذا ، ذو تجربة لايستهان بها . .

لا ياعاشور . . هم يعرفون مع من يتكلمون . . أهمّ شيء تفعله ، هو أن تلزم الصمت . . الصمت هو الحل . حين تكون الأحكام جاهزة . . أصمت . . يقل الهذيان ..

شيئاً فشيئاً ، تنحدر الآلام من رأسي المتعب . . إلى رأس اللسان . . إلى الثدي . . تستقر قليلاً عند عضوي التناسلي الميت . . تنحدر الى رجلي . . تشتعل النار في قدمي برهة ، ثم تتلاشى ببطء . .

أبدأ في فلك الرموز . . تتسع الدوائر . . أشكال هلامية من مزيج من الأجسام المختلطة والألوان . . تتفكك الأشياء الأخرى تتباعد الأجسام والكتل السوداء عن بعضها بعضاً . . ضباب كثيف ينساب ببطء من عينيّ ينكشح نهائياً بعد لحظات . . تبدأ لذة الإكتشاف المؤلمة..

كلب كبير في الركن ، لعابه يسيل . . رجل يلبس قميصاً أبيض عليه بعض بقع الدم الحمراء . . آخر بنفس اللباس ، وآخر . . وآخر يقبض على الكلب . . رجال كثيرون . . غامضون . . بعض الأواني الزجاجية . . زجاجات من مختلف الأحجام . . عند أقدامي المرتعشة، أشياء كهربائية . . خيوط . . كابلات سوداء على رؤوسها قطع حديدية حادة . . الروائح المتعفنة . . حوض كبير من الماء والصابون والرغوة .

« آه ياربي سيدي . . كل هذه الأشياء ستفتض هذا الجسد الهزيل . . » كنت أرتعد .. الجروح المملّحة . . والجسم المضمّخ بالأمواه الباردة . .

« لم أعد أتذكر ، هل مررت بها كلها .. أو مازلت.. هل ذقت من طعم كل آلة من هذه الآلات . . أو أن واحداً منها أحدث كل هذه الجروح . وهذه الآلام ، وهذه الآثار التي لا تمحي أبد الدّهر »

— « أصدقاؤك يا عاشور ، مسحوا فيك التهمة . . »

— « أمرٌ لم أسمع به إلا الآن . . ولا يهمني . . »

— « أنت مشبوه من زمان . . »

— « أعرف هذا . . وتواريخ سجني مدونة عندكم في الأرشيف . . . »

— « عندنا في الأرشيف أكثر من هذا . . »

— « أني رفضت الترقية ، لأني كنت أعدّ انقلاباً مع النقابيين الآخرين . . »

— « أكثر . . »

— « تهريب البؤس والماندرينا . . »

— « أكثر من هذا كله . . »

— « لايوجد شيءٌ غير هذا . . »

— « على كل حال ، لايهمنا هذا . . مازال عندك وقت لتثبت أنك رجل . . »

— « . . . . »

— « كلنا أبناء هذا الوطن . . »

— « ومع ذلك نختلف جذرياً . . »

— « لا ياعاشور . . لا أبداً . . أبداً . . »

— « الدليل أمامنا . . واحد يملك كل شيء . . وآخر لاشيء في يده . . »

— « أوف ياعاشور . . هذه من ضرورات المهنة..»

— « كه . . مهنة هذه . . »

— « أما زال يهمك أن تعرف ماذا عندنا في الأرشيف.. »

— « إذا شئت ، ورأيت ضرورة لذلك . . »

— « السلاح . . السلاح ياعاشور . . »

— « لا . . لا . . هذا كذب ملفق . . عفواً . . »

— « سست . . سست . . المرّوكي . . أعطني الملف . . »

« لا ياالسي مصطفى . . لاصلة لي بالسلاح . . »

يتمتم مع أحدهم . . المروكي الذي سلم إليه الملف يفور . . تندلع البراكين داخل صدره . .

— « أسمع . . أنت رأسك حجرة . . والملف . الملف خأ — J.N.1– 78 — عاشور المسمى الماندرينا . . ابن أحمد البرادعي ، ولد حلومة بنت الزكري . . تهريب الأسلحة تحت أكوام البرتقال . . و . . و . . و . . توقيع الجمارك . . تقرير ولد الرومية . .

— « لا . . لا . . يامصطفى . . وحق النبي هذا غير صحيح . . »

— « ماذا تقول في سنك ، لدفع التهمة . . لم تكن طفلاً . . رجلاً تبارك الله ٢١ سنة . . »

— « السي مصطفى هذا خلط مقصود في الأرقام .. عمري ١٢ سنة . . تذكرت حكاية هذا التقرير . . »

— « لاتعترف ضمنيا بتهريب الأسلحة . . »

لا . . لا . . أيها السادة . . كل هذا غير صحيح.. كذبة مطبوخة . . معدّة سلفاً . . ومثل هذه الألعاب معروفة من زمان . . أنا لم أهرّب أسلحة أبداً . . طفل صغير يخاف من مثل هذه الأشياء الجميلة المخيفة . .

الليل كان . . طفل في مواجهة عالم موبوء . . هربت إلى الغابة والعراء المطلق أبحث عن الرغيف . . لي . . للأم العجوز التي ضيعت شبابها في الجراح كان اليوم ، أحد أيام الأعياد الدينية . . الكل معطّل . . استغلت الفرصة. لأخرج أبحث وراء الحدود عن شيءْ يستقبله أهل القرية ولا يرفضونه . . وكان كالعادة « الماندرينا » هو المطروح للبيع . . استهلاكه كثير وأثمانه تافهة . . وهو إذا وصل إلى القرية ، يباع بسرعة . .

كنت قد هددت مرّات ومرّات بقطع الرأس . .
صبياً كنت . . فأعتبرت ذلك من سبيل التخويف . .

ضابط الجمارك الذي يسرح في الخلاء كالوحش . .
ولد الرومية . . عيون القطّ . .

– « هذه المرّة سأدفنك كالجيفة . . »

– « ياعمّي خذ السلعة وأتركني . . »

– « بهذه السهولة ؟ ؟ سأدفنك حياً . . رحلاتك الليلية أصبحت مشبوهة . . »

– « هذا برتقال وأنت ترى . . »

– « الماندرينا لاتضمن لكم العيش . . أنت كذاب ياهذا الجرو . . »

– « ياسيدي ؟ ؟ ؟ . . »

– « أين خزنت الأسلحة ؟ ؟ »

– « بطوننا لم تشبع ياسيدي . . أرجوك خذ البضاعة وأطلقني . . »

— « أنت تهرب الأسلحة ياوحد الفرخ . . »

— « الأسلحة لاتباع في قريتي . . »

ودوّن عني ، في تقرير خاص ، أني تاجر صغير للأسلحة . . ووعدني بتمزيق الوريقة التي كانت تتراقص في يده ، إذا توقفت عن التهريب وإذا لم أعد أسبب له المشاكل . .

لكن الدودة التي نمت في جسدي مع الجوع ، لم تكن لتتركني ، أعدل عن عملي . . بعد أيام قلائل عدت إلى الجري والماندرينا . والجمارك . . وألقي علي القبض من جديد . . صغيراً حوكمت وسجنت . . طفلاً كنت ، أعانق مرغماً ، المخفر .

— « ياولد القحبة ، أنت تتاجر بالأسلحة . . »

القوانين الدولية . . كه . . كه . . الصغار لايسجنون..
وفي عالمنا هذا أول من يوضع السيف على رقبته هم الأطفال..
ثلاثة أشهر سجناً ، بتهمة التجارة بالبرتقال المشبوه . .

إيه ياعاشور . . الآن تذكروا الحادث الصغير . .

زكّوا التقرير نهائياً وزيفوه . وخلّطوا الأوراق والأرقام حتى يكون إعدامي شيئاً مقبولاً إلى حدّ ما . .

– « كان عمري ١٢ سنة وقتها ياسيدي ، وكنت أهرب البرتقال . . . »

– « لكن هذا لايمنعك أن تحدثنا عن التنظيم ورؤوس التنظيم . . »

– « قلت لك لاعلم بهذه الأشياء . . »

– « مرّة أخرى أنصحك أن تكون رجلاً ، وإلا التجأنا إلى الأساليب الأكثر أناقة . . من مصلحتك ياعاشور أن تكون رجلاً . . »

* * *

- ٤ -

آخ . . هذه البعوضة السامة . . امتصت دمي دفعة واحدة كالعلقة . . الله (يخليها) و (يخلي) أيامها . .

إيه . . البرودة . . الصقيع . . رعشة الخوف . . الساعات والدقائق التي تأكل اللحم . . القاعتان ؟ لاتختلفان . . كل القاعات التي يباع فيها القهر مجاناً وينبت الموت في جدرانها . . لاتختلف عن بعضها . . أقبية سوداء.. مخيفة . . تتحرك داخلها الأشياء الغامضة . . و . .

« حطوني في مكان يشبه لقبر (١)

لازم نصبر / لازم نصبر . . »

أقبية الموت ياعاشور . . الحجارة المحروقة . . أنواع الحشرات . . آخ . . كيف تعرف عينا الإنسان نوماً داخل هذه الرطوبة وهذا العفن المصحوب من حين لأخر بلذعة قاتلة من البعوض ، أو البرودة النافذة في الجسم الإنساني

---

(١) أغنية شعبية مغربية .

كالسيف . . مربع صغير بأربعة حيطان . . تضيع في ظلمته المخيفة كل أبعاد الأشياء . .

تفو . . تفو . . مرّة أخرى عاد هذا القط المخيف ليثبت عيونه في كالمسدس . . أكيد أنه جائع . . ولد الرومية الموَحش . . عيونه كانت كذلك زرقاء ومخيفة بشكل فظيع . . خصوصاً عندما يثبتهما في عينيّ ، فأضطر صبياً صغيراً . لإنزال رأسي . . أطأطئه في الأرض . .

« أمش أمامي ياهذا الجرو . . أعلمك الزنباع وين ينباع . . »

كلب ضارٍ . . متوحش بشكل فظيع ومخيف للغاية.. أنا عاشور الماندرينا الطفل كنت أخشاه وأكرهه كدم الأصراس . .

« ياالفرخ . . أنت رأسك غليظ وأنا رأسي حجرة.. »

القطط الضالة . . الخوف المزمن . . (يلعنه ويلعن زمانه) . . يريد أن يلتهمني بعينيه . . يحسدني على قطعة خبز يابسة مرّ عليها أكثر من أسبوع ، الله!! ، لو مرّ عليها يوم أخر لأصبحت سماً بدون أي شك . .

« الجوع ياولد . . الجوع يجنّن . . »

هه . . خذ . . الوهج . . خلّصني من عيونك . . كل أنت وأنا أتمتع بالتفرج عليك . . مقرف . . ومقلق للغاية ، هذا القط الذي يحمل في عينيه جوع القرون . . ياه . . التحديد الزمني ضاع .. كم من الوقت مرّ حتى الآن . . من الظلمة إلى الظلمة . . والمؤكد ، أننا لا نستطيع الرحيل من هذه الأقبية المظلمة ، إلا عندما تغيب الشمس ، أو ربمّا أكثر من ذلك بقليل ، أو بكثير ، حسب ظروف العالم الخارجي ، (والناس « اللي » فوق) . . فالرحيل نهاراً يحمل كل المخاطر والمغامرات المخيفة . . الميئوس من نجاحها في أحايين كثيرة . . عليلو . . آه عليلو أين أنت الآن ؟ ؟ في هذه اللحظة بالذات ؟ ؟ ماذا تفعل ؟ ؟ ميت أم حي . . نحن في عالم تصدق فيه كل الاحتمالات . . آه ياوليداه البلاد .. أخاف عليك الزمان . . شاب ومسلول . ياخسارة . . الناس الجيدون يفنون بسرعة ، إذا لم يمتلوا في الأرحام ..

منذ أن حشرني داخل هذا العالم لم يرني وجهه . . غاب ، ولست أدري متى يعود . . أراني الفراش .. والأكل وعلبة

الشمع والكبريت . . وقصاصات صحف كانت ضمن المؤن في الصندوق ، وقال أنها مهمة جداً ، وذات صلة مباشرة ، يجب الإطلاع عليها بسرعة وحرقها . .

— « حاول أن تنام ملء جفنيك . . وإذا أبطأت حاول أن تقرأ هذه القصاصات فهي على كل حال مهمة جداً . . ولا تخش شيئاً فأنت في مأمن . . »

— « ياعليلو ، والكلاب . . »

— « الكلاب . . الكلاب . . أوف لاتخشى شيئاً، هذه المرّة لن تفاجئنا . . »

طار ، ولم يزد على هذه الكلمات المحدودة . . ربّما تلك هي التعليمات الصارمة الّتي آعطيت له . . والخوض معه في أمور تتعلق بهمته أمر لا يجدي نفعاً . ربّما لو كنت مكانه لكنت فعلت الشيء نفسه وربّما أكثر . . خصوصاً إذا كانت القضية، قضية حياة أو موت لا قد أرفض الإجابات مطاقاً ، أو أحاول أن أهرب به إلى بئر القيل والقال . .

« عندما تكون الرؤوس مطلوبة . . خذ حذرك . . »

« الذئاب ذئاب والرجال رجال . . »

. . ثقيل . . ثقيل كالرصاص . . جسدي مترهل.. لاأكاد أحس بوجوده على الإطلاق . . بعض البؤر الصغيرة فيه ، وحدها ، مازالت تنبض . . الأماكن التي مزقتها أساليب القمع الوحشية . . والمشي فوق السدرة و « القندول » و « مارمان » ذو الرائحة الخبيثة ، الذي يلتصق بالجسم كالعلقة . . الظلمة . . عيدان « الأحطاب » الوحشية . . تنغرس في الساق كالخناجر المدببة . . المشحوذة خصيصاً للذبح . .

آه ياعاشور الماندرينا . . ماأعظم النوم ، ولو داخل هذا العفن . . الفراش دافيء ياعاشور ، رغم أن البعوض احتلّه عن آخره . . ورغم عيون هذه القطط المخيفة ..

عيناي ثقيلتان . .

يتدحرج عنقي بجانب الصندوق الخشبي . . التعب.. تبدأ الرحلة . . أذوب . . أتلاشى نهائياً . . أسقط في مدّ لامتناهٍ . . .

ياه . . لم أكن أعرف آن الراحة لذيذة بهذا الشكل . . ساعة . . ساعتين . . وبعدها ، فلتُزلزل الأرض ، ولتكسر السماء إلى شظايا صغيرة . . على الأقل لاأحمل معي غصة التعب في عيني وحلقي . . .

سبحان الله . . هذه العيون الشوكية . . هذه الوجوه المدوّرة الجميلة رأيتها قبل هذا اليوم . . تعانقنا ذات يوم في السرّ والعلن . . في الأفراح والأحزان . . تقاسمنا الدم والكسرة اليابسة . . روزا . . ماريا . . الطفلة الآسيوية.. الإفريقي الأسود . . هؤلاء أتذكر جيداً أنهم كانوا معي في المنجم . . وحين سمعنا ارتجاجات في السقف..وعلا صراخ الموت . . افترقنا فجأة وحتى روزا لو لم تكن بجانبي لكانت ضاعت وسط الضوضاء وانتهت قبل نهايتها . .

آه ياأمتي « الحنينة » . . لم أخطىء . . لم أخطىء . . كنقطة دمٍ اعرفهم . . كانوا معي . . كنا سوياً . . تتالت ردم التراب الأسود في التساقط . . علا الصراخ . . هوت السقوف . . ودفن الآلاف أحياء . .

« مناجم النور . . الخبز والحياة والأعمال الشاقة . . »

تفو . . تفو . .

« الله يعطيك الويل أباري(١) . . خليت فاطمة بلا والي(٢) . . . »

كه . . كه . . عالم مثل هذا ، وإلا ما (يشقاش) . .

جمال بشكل فظيع . . قطع صغيرة نزلت من الجنة.. روزا والآخرون كنا نتعانق جميعاً . . نحمل في قلوبنا فرحة خجولة . . نشق هذه السماء المزروعة بالنجوم نسقط واحداً واحداً . . أرجلنا يابسة » تملؤها المسامير الصغيرة والأشواك . . الدم يتقاطر . . يسيل . . يصبح نزيفاً . . ودياناً . . يفيض بسرعة . . يموج فوق المروج والمراعي . . يصبُّ في النيل . . في « الطاميز » . . في الفرات . . يمتزج بدم الشهداء الذي اجتاح نهر « السين » ذات يوم من أيام ١٨٧١ . . الدماء تكتسح الخارطة . . ومعها تزحف الحمرة جيوشاً مقاتلة . مخلفة وراءها دخاناً ومصانع وأراضٍ خصبة يمرح فيها الأطفال . .

(١) باريس .
(٢) أغنية شعبية مشهورة ، في الغرب الجزائري .

والله . . وحق الرب ، العالم انقلب على نفسه . . ماريا . . روزا . . الطفلة الآسوية الإفريقي . . ألم يموتوا ؟ ألم تأكلهم الصخور البركانية والأتربة السوداء ؟ ؟ أبهذه السرعة يبعث الرجال . . أنا عاشور الماندرينا ، كنت متأكداً ، أن ذلك سيحدث ذات يوم ، ولكن ليس بهذه السرعة . .

نتسلّل مع بعض . . شوارع قريتي بالليل مغرية . . لكن هذا الضباب الهمجي ، يحجب كل الرؤى . . عواء عواء الذئاب الذي اعتدناه ، انقطع هذه الليلة . . كل الأشياء ، كانت جميلة في هذه الرحلة المفاجئة ، مع هذه الوجوه المختومة بالهم الأسود . . جميلة جمالاً يثير الدهشة . . يغري بممارسة الحبّ حتى اللحظة الشبقية . . في قلب الرحلة ، تعاودني متاعب الأيام الفائتة . .

— « أتذكرين ياماريا الفلم الذي رأيناه عن بلدكم . . »

— « أذكره جيداً ، وأرفضه . . »

— « يصورون الحياة عندكم بجمال مطلق . . قصور . . جنس . . رقص . . »

ـ « هؤلاء ياعاشور كذابون . . يلعبون الورقة بوجهيهما (جابت وإلا خابت) . . »

ـ « في امريكا اللاتينتة . . في التشيلي الجوع يحصدكم كالنمل . . »

ـ « هذه هي سياستهم . . المال . . والحفاظ على المصالح ولو كان ذلك على حساب الوطن . . »

ـ « كه . . كه . . عصفورين بحجر . . »

وحق الرب ، العالم يمشي على رأسه . . مادخل كل هذه القضايا . . بالقرية . . بالأيام الفائتة . . بتلك الوجوه التي أكلها عفن المناجم ، وعادت تمارس الحياة في أتعس المواقف وأظلمها . . .

« تذكروا هذا . . ديان بيان فو . . كانت هي لحمي ودمي . . »

كه . . كه . . حرب الفيتنام كانت ضربة للرأسمال . . للامبريالية . .

إيه . . شعب كان يسقط كالنمل . . اللحم البشري

وجهاً لوجه مع ماكنات الحديد المخيفة . . ومع ذلك أكلوها ساخنة . . ساخنة كالجمرة . .

عاودني قاسياً ، ونقياً وأبيض كشمعة ، وجه الكاهن الهندي الذي جاس وسط اللهب في الساحةالعمومية وأحرق نفسه احتجاجاً على الحرب الفيتنامية — الأمريكية . .

« جميعنا الآن . . نعيش حرباً . . نترقب متى ينفجر الزر . . اللغم الأول لتتبعه ألغام أخرى ونتبعه نحن بوعي مطلق . . فموت . . فزلزال يأتي على كل هذه الأركان التي « عشّش » فيها الشحم . . فصحو أبدي . . »

روزا صامتة كالحجرة . . لم تتكلم على الإطلاق.. منذ بداية الرحلة لم تقل شيئاً . . ياالله ، يمكن أن نكون قد أزعجناها بحديثنا . . ربّما لم تفهم كلامنا . . ياروزا.. ياهذه المرأة الجبلية القادمة من هوامش باريس . . نحن عندما ندين فرنسا . . ندين رأس المال . . نلعن المريشال « بتان » . . « تير » . . « بيجار » . . « فيشي » الذي باعكم كالبقر ، كالماعز الرخيص . . ندين التجار الذين يبيعون وطنكم بالتقسيط لألسنة الدمار . . بالمقابل

ياروزا الجبلية . . نحن نحب من القلب رجال الكومونة.. أجدادك ، وأنت تعرفين ذلك جيداً . . الأمور واضحة كالشمس ياروزا . .

– « مابك ياروزا ؟ ؟ »

– « حزينة حتى النخاعِ . . السبب لست أدري ؟ ؟ ! ! »

تسقط نقطة كبيرة وضخمة من مياه الأمطار . . تحدث في التربة حفرة سرعان ماتمتلىء ، وتفيض بالأمواه . . تضيق المسافات. البرد القارس . . يبدأ شيْء في أعماق الأرض ينمو كالبركان . . كالزلزال . . شيْء غير واضح ولكنه موجود . . تهتز تحت أقدامنا الأشياء العادية.. تضحك روزا . . تطوّقني . . وبعنف تدخل في صدري، بين الضلوع تتكمش كالقطة الصغيرة . . تتبعها الآسيوية.. الإفريقي . . فماريا . . فجميع جياع الكرة الأرضية.. أحس بألم ، مصحوباً بلذة غريبة . . تنشق الأرض . . التربة تتحلل إلى ملايين الذرات . . تطير في الهواء الطلق .. الكرة الأرضية بكاملها تغير مسارها وحركتها الطبيعية.. ينتابني نوع من الخوف ، لكنّي لاأهرب . ربّما لأن

الشجاعة تكمن في الأشياءِ الجميلة التي استقرت قبل قليل داخل قلبي . . رجال ونساء .. وأطفال بعيون ربيعية . . عصارة التجربة الإنسانية . . عذابات الشعوب المقهورة.. ورائي جيش جرار . . فكيف أهرب ، حين يكون لافائدة من الهروب . .

هذه هي المدينة الكبيرة التي تعارفنا فيها جميعاً لأول مرّة . . وأفترقنا فيها افتراق الرجال . . هي . . هي . . بجمالها وعفنها . . الناطحات ، فيها ، بدأت تتأكل من تحت . . سوس . . ملايين الحشرات تلتهم أعمدتها الأساسية . . رويداً . . رويداً . . تقطع الجذور . . تهوي كشجرة سرو عاليه داخل غابات مهجورة . . تسقط الناطحات الواحدة ، تلو الأخرى . .

في زاوية خلفية . . النيران التصقت بمخازن النفط . ألسنة اللهب تعلو . . تعلو حتى تصل السماء . . تتمدد عبر الأرض . . تصل الصحراء العربية . . وتبدأ فظاعة الأشياء.. انفجارات . . ملايين الانفجارات . . المقاهي . . دور السينما . . المطاعم والأشياء الأخرى التي لاأستطيع رؤيتها جيداً ، تغرق في بحر من نار . .

مازلت في مكاني . . في قلبي دمعة . . وأطفال صغار ورجال . . نساء . . من زوايا العالم الأربع .. يحلمون بيوم الولادة مع الزلازل والبراكين . .

ياه . . حتى السلاسل الجبلية التي تطوق المدينة . . تنشطر إلى قسمين . . في قريتنا يقال ، أنه حين تقترب القيامة . . تنشطر الجبال . . ويحفظ الشيوخ والأطفال عندنا . . حين يأتي الفارس الأدهم الذي سينجي أخته من أنياب الغول الذي سكن الجهة الأخرى من نفس الجبل. . سيتعلم كلمة السرّ ، التي يحفظها حمّو في صدره . . يصيح . . يصيح . . ثم يضرب الجبل بسيف حديدي مهند ، يشبه سيف (السيد علي) . . فينفلق الجبل . . وقتها يمرّ الفارس ، بلباسه الأحمر ، وتصبح بينه وبين أخته مسيرة أعوام فقط ، يأتي عليها جواد براق ، يلتهم المسافات . .

« تلك علائم القيامة . . تلك علائم الصحو والبداية»

ويقال في المدينة التي تعاشقنا فيها بعمق . . أن المسيح حين ينزل ذات فجر . . يرفع السيف عالياً ، عالياً ،

ثم يشرع في قطع صدور الجبال التي تعوق سير جواده الأبيض ، إلى أن يصل المدن المتفسخة ، فينفخ فيها ، فاذا هي ذرات متطايرة في الفضاء الرحب . . ثم يأمرها.. وبأمره تلتئم . . يدخلها من جديد ، في داخله ، حساسية خارقة ، لإعادة بنائها بوجه أجمل ، وبسواعد أناس رائعين ، جمالهم يثير الدهشة . .

« هذه هي أبعاد النهايات . . . »

حمم . . براكين . . الزلزال . . السديم يجتاح المدينة . . يلتهمها . . أشياء تشبه السكاكين ، تهاجم دفعة واحدة الملأ المتعفن . . تأكل لحمه وشحمه ، وبعظامه تنقي أسنانها . .

« المريحا »(١) تصلني . . تنفتح الأرض عند قدميَّ . . تفغر فاها عن آخره . . تلتهمني بألم ، والغريب ، أني ، بالرغم من ذلك لم أصح كما يصرخ هؤلاء الناس الفارون من حمم البراكين . . من عظمة هذا الزلزال . .

« في قلبي طفلة تعشق بحياء ، وتحاول أن تبتسم بفرح . . »

---

(١) نوع من الرياح العاتية .

أهوي بتثاقل . . لاأصل القاع بتاتاً . . أتدحرج كالذرة . . الحرارة قاسية . . ومع ذلك لاأصيح . . أضغط على نقطة ماداخل صدري . . زرّ . . فجأة . . أجد نفسي أصعد . . أصعد . . أتألم . . ذرة . . الإسراء والمعراج . . هو الإمتحان ياعاشور الماندرينا . . الرجال الرجال الحقيقيون ، من حافظوا على نقاوتهم في مثل هذه الظروف . .

صمت رهيب . . يموت الصراخ . . لاحركة . . لاحياة . . الأرض قفراء . . ياه ؟ ؟ أين الناس الذين كانوا معي قبل الآن . . هل انتهوا بهذه السرعة . . بالسرعة التي عادوا بها ؟ ؟ عالم عجيب وغريب . . الأشكال فيه تتكون كالبرق ، وفجأة تغيب ثم تعود . . ثم . . .

تلتئم جروح الأرض . . تونع فيها أشياء صغيرة ذات ألوان قزحية . . تكتسح الخضرة جيوساً ، ، تجعل من اللوحة المملوءة بالندوب ، جنة .

في الأفق البعيد ، كان العالم يمر باعادة تشكيل ، وتكوين صارمـة . . أعلام حمراء دم ، تمشي . . تتقدم..

تعزز مواقعها . . زحفها لاينقطع . . ياه ! ! ! ؟ ؟ ؟ ؟

تظهر روزا بكل أنوثتها اليافعة وقوتها . . الطفلة الآسيوية . . ماريا . . يظهر الإفريقي بشكل واضح.. كل واحد يحمل بين يدية أشياء لم تتضح . . يقتربون .. فؤوس . . مناجل . . مطارق . . سلاح . . وأمور أخرى يحتضونها بحب في الصدر . . يقتربون أكثر . . يكونون نجمة جميلة بأعلامهم الحمراء . وبكل الأشياء التي كانوا.. يحملونها بين أيديهم . .

غريب . . قبل قليل فقط ، كانوا داخل قلبي . . مازلت أحسّ وجودهم المطلق . . لقد أنعكس الوضع.. أصبحت أنا الذي أسكن داخل كل واحد منهم . . عصفوراً بألوان قزحية .

العالم القادم من الآفاق ، مازال يزحف . . مطارق.. فؤوس . . خناجر . . والأشياء الأخرى . . ياه . . كيف وصلت إلى هنا . . كنت معهم أحمل هذه الراية الكبيرة ،

أنهي بها القرن الخامس لهذه النجمة الجميلة التي استقرت الآن ونهائياً ، على لون واحد ، في أنسجام لامتناهٍ .

وتبدأ فوق هذه الأرض الجميلة ، تنبت حكايات قوم أحبوا مدينة كبيرة بكل عنفوان ، فسقطوا شهداء قبل أن تتوجهم هذه الرايات الخفاقة عالياً . . لكن . . . ياعجباً . . نكاد نجن . . ألم نقل أن الأسيوية والآخرين، أكلهم المنجم . .

« العظيم فوق أن تأتي عليه ، أنياب الغول . . »

الصبية . . الفرحة الكبرى . .

« ياالنو صبي . . صبي

ماتصبييش علي . . »

الكارنفال على غير العادة . . الكل منسجم مع هذه النجمة الحمراء القادمة من الآفاق والصاعدة من بركات الدم وجبال العظام البشرية . .

« الذين لم يصلوا . . الآن قد وصلوا . . »

روزا . . في بلاد بعيدة التقينا . . وتعانقنا في حظيرة « الأغوال والأهوال » . . ؟

هي الآن تعود من جديد ، نقية ودافئة كالفجر . . ؟ ترتسم على شفاهها ، ابتسامات عريضة وجميلة . . روزا.. جميلة كالكرة الأرضية . . بل في تلك اللحظة كانت هي الكرة الأرضية نفسها . .

تقترب النجمة الزاحفة . . تقترب الناطحات العالية والمواخير ، والمقاهي الراقية . . وفنادق الثلاث نجوم والأربع وال . . يبدأ الصراع . . الموت . . الصراخ.. الزلزال يعود من جديد . . نباح الكلاب . . الموت الأحمر.. طنين في الرأس . . عرق . . ماء في كامل الجسد . . القيامة قامت . .

ياإلهي ماهذا ؟ ؟ ؟ . . ينشب الذعر في داخلي . . أقفز.. يغرق أحد أصابعي في بؤرة مقيحة ، في قدمي . . أتألم.. أتحسس جلدي . . أنياب الكلاب ماتزال هي . . هي .. آي . . آلام جهنم الكحلاء . .

الكلاب . . الكلاب كالنمل تملأ الحارة . . النباح يتزايد . .

أقفز مرّة أخرى . . ماذا ؟ ؟ ؟ استيقظ . . أستحضر كل شيء . . مرّة أخرى أحدد موقعي . . القط لم يعد في مكانه . . كابوس مزعج . . لعلي كنت أصرخ ، ففرّ . .

« عوالم تأتي وتروح . . تمر بسرعة البرق . . »

هاووو . . هاووو . . ياالله نباح الكلاب فوق سطح القبو . . هذه المرة لم أكن أحلم . . ولكنها الحقيقة..

« هاوووو . . هاووو . . »

نباح حقيقي ياعاشور . . مرة أخرى عليك أن تواجه، هذا العالم بضراوة . .

* * *

- ٣ -

« هاو . . هاو . . هو . . »

نباح الكلاب فوق سطح القبو . .

أشياء غير عادية تتولد في رأسي بعد هذا النوم المزعج

أبدأ سرّ التطلع في الأشياء العادية وغير العادية . . أعيد ترتيب الأمور من جديد . . إيه . . انتهت المسألة بخير . . كنت أحلم . . هذا مافي الأمر . . المسألة رغم عظمتها . . كانت حلماً . . تمنيت لو كانت حقيقة . . لكنها في هذه الظروف التعسة ، فوق أن تكون حقيقة.. سيأتي يوم ولكن ليس الآن . .

آخ . . آخ . . القط ذو العينين البرّاقتين . . عاد من جديد لينتصب قبالتي . . النظرة الثاقبة نفسها . . لكن هذه المرّة بدأ يتحرّك بشكل مشبوه ، يدعو الى التخوف والريبة.. وقع خطوات فوق سطح القبو . . إذن صوت الكلاب كان حقيقياً . . لم يكن حلماً بأي حال من الأحوال . .

« هاوووو . . هاووو . . هاووو . . »

أجر ياعاشور . . أجر . . العمر كلّه جري . . لا . . لا . . ياهذا المسكين . . كيف يعقل أن تجري في وضع مثل هذا . . محجوز داخل أربعة جدران كالفأر . . أينما ذهبت أصطدمت بحائط ما . .

« النباح والحركات الغامضة فوق السطح إذن كانت حقيقة . . »

« هاووو . . هاووو . . »

تصوري إذن كان في محلّه . .

هم . . وحق الله هم ؟ ؟ المسألة أصبحت مفضوحة.. حكاية « موسمبي » تتكرر بنفس الشكل . . أوصلوه للموت وجعلوه ، مرغماً يخاف النهايات . . وأنا . . من التفاهة جداً ، أن أموت بهدوء كالبهيمة . .

تحسست الخنجر الصغير . .

رجل في مواجهة الكلاب . .

فليمت أحد منّا ليترك المجال للآخر . . وستبقى الحقيقة التاريخية هي الحقيقة المطلقة . . أوه يا عاشور . . لاتخش شيئاً . أساليبهم معروفة وإن كانت متعددة .. إيه قد يغلقون ثقب هذا القبو ، ويقذفون إلي من خلال الفجوات بالغازات السامة مثلما كان يفعل الاستعمار في الحروب الفائتة . . وأنتهي كالنملة بكل بساطة . .

لاأنا آكل القط . . ولا القط يأكلني كلانا وقتها نصبح مجرد جيفة . . آه . . ياعاشور المغبون . . موسمبي كان رجلاً رغم أخطائه . . ألقي عليه القبض وهو يجري يناضل من أجل الفقراء . . من أجلنا جميعاً ، ولم يفاجأ داخل فراش تزدحم داخله كل أنواع الحشرات . . برغوث ؟ . بق بعوض . . وداخل قبو احتلت كل أركانه القطط الضالة ذات العيون الزجاجية : تفوح . . تفوح منه رائحة العفونة من بعيد . . تزكم الأنوف . .

« لا . . لا . . الأمر مرفوض . . لابد أن يكون للمسألة تفسير آخر . . »

عليلو رجل وابن رجال وليس من الهيّن للتشكيك؟
في مبادئه . . فقد كدنا نموت معاً . . وشربنا من نفس
الوادي المتعفن . . التهمنا المسافات البعيدة . . تقددت
أرجلنا . . حاولنا قدر المستطاع محو كل الآثار . . ثم
جاء الوادي ليتلف كل هذه الأشياء . . وحتى لو فرضنا
أن نيته مبيّتة . . لماذا لم يُصفّني في منتصف الطريق، حيث؟
كنت أكلة شهية للابتلاع وسهلة . . كان عليه أن
يقتلني ويرميني في واد . . فالخلاء واسع سعة الصحاري
والبحار وانتهى الأمر . . ولكنه لم يفعل كل ذلك. فلماذا ؟
يفاجئني في مغارة مقرفة » مميتة ؟ ؟

« لاتخش شيئاً ، أنت في مأمن . . »

عفواً ياعليلو . . أعرف أن قلبك البدوي واسع .
لاحتضان كل أخطائي . . أغفر لي يارفيقي . . فأنت
تعرف – ربّما أكثر مني جزع الذي جرّب الهمّ . .
شربنا النار ياعليلو ، ولم نقل آه ياولد البلاد . . اعذرنا
حين نصاب بالغباء من حين لآخر . .

– « سندخل هذا المكان . . فالأمور مدروسة بجدية . . »

– « وإذا لم تسر الأمور كما نبغي ؟ ؟ . . »

– « لاتحمل همّاً . . أترك هذا علينا . . »

قد أخطىء ياالرب العالي . . مع أني في قرارة نفسي أرفض رفضاً باتّاً أن أخطىء..في رأسي تتكالب أسئلة عدة . . بودّي لو تخرج دفعة واحدة وتخلصني من هذا الهم الذي استوطن دماغي . . أيفعلها عليلو بهذه السهولة.. هم الرجولة والملح يُرمى في الوادي . . لا . . لاأتصور ذلك أبداً . . بل ليس من حقّي أن أفكّر كذلك . .

« هاووو . . هاووو . . هاووو . . »

آخ . . هذه الكلاب التي تقبع فوق دماغي عليها اللعنة . . والغريب ، أنّه في هذه اللحظة الطائشة . . المملوءة حتى الفم بالكوابيس . . كل شيء زال أو على الأقل سكن . . أو . . نسيته فقط . . الأورام . . النبض . . الجروح . . الآلام ، لم أعد أحسّ بها . . كل فكري أتجه إلى (الناس اللي فوق) . . حتى الرائحة التي كانت عفونتها تتفاقم من حين لآخر . . انقطعت ولم تبق إلاّ تلك الأصوات المخيفة الغامضة تملأ الرأس والذاكرة..

« عاشور . . مازال الوقت بين يديك لتكون رجلاً . . »

ياإلهي . . أأعود إلى عض الكلاب . . وتقليم الأظافر . .
الكهرباء . . العضو التناسلي . . الماء والصابون . . . .

هذه الكلاب التي فوق رأسي . . نباحها . . مخيفة . .
مخيفة . . .

— « سنلتجىء إلى الوسائل الأكثر أناقة . . . »

— « . . . . »

— « من مصلحتك أن تكون رجلاً . . »

« أنت لست الماندرينا الذي يجهل كل شيء . . . »

« رأسك مملوء بالأخبار . . حياتك بين يديك . . . »

أوه . . مقلقون أنتم . . مقرفون بشكل يدعو إلى
التقزز . . ألم أقل لكم بأني مجرد عاشور الماندرينا . .
الماندرينا ياناس . . لست الرجل الذي يتاجر بالأسلحة . .

« آه ياالزمان الأكحل الذي يأكل أبناءه من الداخل . . »
لو كانت عندي قنبلة فتاكة ، في هذه اللحظة بالذات :

كنت رميتها في وجوهكم ، ولا يهمني بعدها إذا سقطت في دمي ، أو ردمت وسط هذا العفن المرفوض . .

أوف . . هل يفعلونها في هذه اللحظة الباردة . . في هذا الجو ، وهذه العيون الغريبة التي تراقب كل تحركاتي لتثقب جثتي . . لا . . لاأتصور . . ياالله . . ماذا تأكل هذه الكلاب حتى أصبحت ضخمة بهذا الشكل . . عودوها شهوة اللحم البشري النيّىء . . ابن آدم تلتهمه في لقمة واحدة . .

آخ النباح يملأ دماغي . . يبدو أنه استوطنه إلى الأبد..

— « تكلم وإلا التجأنا إلى الوسائل الأكثر أناقة . . »

مع أخريات هذا الصبح الليلي . . أحس بصوت يخرج من القلب . . يناديني باسمي . . يبحث في القمامات عن لحمي الذي توزعته المسافات والكلاب والقطط الضالة ..

يدفن عظامي في أول نقطة نقية يصادفها على هذه اليابسة . . يدفنني فيها ، ويزرع فوق قبري وردة حمراء . . حمراء دم . . تنضج بسرعة وتكتسح اللوحة الأرضية . .

أحس بشيء مؤلم يغادرني من الداخل . . أحزن حتى النخاع . .

— « هيا تكلم . . لاتجعلنا نفقد صوابنا . . »

هذا الذي يخزرِ لي بعينين جاحظتين . . يترقب اللحظة الحاسمة ليغرس أنيابه في أشلائي المتبقّية . . يبدو جميلاً بهذا الفرو الغالي ، وهذه السحنة الضخمة . . لعله مستخرج من أرشيف الجسطابو الذي هجم على حميميد وليدي ، فأكله من الداخل . .

« آه ياحميميد ياوليدي . . هكذا الرجال . . وكنت رجلاً . . »

يتقدم منّي . . يتشممني . . يلحس جروحي . . أخ . . خنزير هذا وليس كلباً . . رائحته كريهة . . لعل بطنه مملوءةٌ بالجيفة والأجساد البشرية التي سقطت تحت وحشية التعذيب . . والموائد الملوكية التي نسمح بها لأنفسنا نحن بني آدم التعساء الذين يأكلهم الفقر من عيونهم . .

— « كه . . كه . . الكلب يظلُّ كلباً مهما كان الأمر . . »

بعد قليل(سيعرض عليّ أكتافه) ويدفن مخالبه في صدري.. ويأتي بعنف على ماتبقى من جسدي . . استعد ياعاشور للأشياء الكبيرة التي تقف قبالتك وجهاً لوجه في عملية تحدٍّ صارخة . . استعد وكن رجلاً . .

« الرجال لمثل هذه الظروف . .

آه . . أيها الرفاق المهمومون . . المطعونون من الداخل.. كلكم ربّما ، في هذه الدقيقة بالذات ، موجودون في نفس الموقف المتردّي . . لولا الأخبار التي كانت تطعننا داخل السجون والأقبية المغلقة ، ماكنا عرفنا ، الحي والميت منّا . . كل واحد رمي في زاوية مظلمة ، تأكله الروائح الكريهة وبرودة الإسمنت ، والجروح التي تفغر فمها كالحفر . . إيه . . ربّما فيكم الآن من لايزال على قيد الحياة . . فيكم من سقط تحت التعذيب الوحشي.. بعضكم أعوجت سحنته وقطعت أطراف جسده إرباً إرباً .. من يدري كلها احتمالات تكاد تكون هي الحقيقه بعينها.. شيء واحد لايمكن أن أشك فيه ، وهو أنكم لمتنسلخوا عن حلمكم الذي سقط من أجله أبناؤكم وآباؤكم . . أن يسقط

عشرة من أبناء هذا الشعب العظيم ، خسارة كبيرة ولكن ليس هزيمة . .

« من خسر معركة . . لم يخسر الحرب . . »

فبين هذه المخلوقات التي تدأب يومياً ، بحثاً عن قوتها ، في الشوارع ، في عفن المناجم . في المزابل . في المصانع . . العشرات . . المئات . . الآلاف . . الملايين . الذين يترقبون اللحظة الحاسمة للثورة . . للتدمير النهائي لهذه العوالم المزيفة ، والتي تنهشهم بكرة وأصيلاً . . وتصفية الحسابات التاريخية . . اليوم . . غدا . . بعد عام . . بعد قرن . . بعد . . سيأتي ذلك اليوم مضرجاً بالدم أو «بطافية» حمراء فوق فرس أدهم . . لكنه سياتي . . ويكون الحسم..

— « ياعاشور . . الكلب كلب حتى ولو أصبح سبعاً . . . »

— « الوقت بين يديك لتثبت أنك رجل بالفعل . . »

— « قلت لاأعرف شيئاً . . ولا أخبىء شيئاً . . »

— « كه . . كه . . إذن ؟ ؟ تعرف البقية . . »

آخ ، هذا الدم الذي يضيع ، ربّما لو استغل لأنقذ أحدنا

من الموت . . لا . . لا .. إذا كان يقدم ليد ستقتلني ،
فلتبتلعه هذه الأرض العطشى . .

يعود اليوم قاسياً . . رمادياً . . تغزوه مادة سوداء هلامية ، مخيفة . . الدم .. وديان الدم .. طلقات البارود.. الفلاح . . الرفش . . العسكري . . رأسه المفصول عن جسده . . لخضر . . فاطمة زوجة عليلو الصياد . . الأطفال يموتون في الأرحام . . الأغنية البئيسة . .

« . في حرب الكبار . . شوذنب الطفولة ..

في حرب الكبار ، شو ذنب الضحكة .

الخجولة . . »

تتكاثر الإجهاضات الشتوية . . الحرس في كل المنعطفات . . حرق البنك . . آي . . وضع يذكر بمجزرة الكومونة . . الإقتحامات الرهيبة . . الموت الذي يبدأ من بوابات سان كلود ، غير المحروسة . . الدم . . الأيام الثمانية البورجوازية الحقيرة . . الخائنة . . الوحش الجميل.. تمس مصالحها ، بسرعة كالبرق تتحوّل وداعتها المزيفة إلى خنزير برّي يقتحم كل من يصادفه في طريقه ..

الموقف كان دراميّاً . . أن تدافع أو تموت (ميتة رخيصة . .

آخ . . آخ . . هذا الكلب مزعج للغاية . . يقترب منّي أكثر ، فأكثر .. يتشممني يلحس جراحي ، من جديد .. ألفة كاذبة . . فهو ينتظر اللحظة الحاسمة . . لحظة الأمر ليشرع في النهش والتمزيق والنباح المصاحب للعملية . . جسمي ، بهذه الجروح المغرية ، يبدو شهياً على غير العادة ، لهذا الكلب الذي احمرت عيناه بشكل مخيف . .

« أجبرتنا . . وستموت كالجرو . . »

وجه رقيق . . يبتعد عنّي . . يزيل نظارتيه . . يمسح عينيه بخرقة يخرجها من جيب قميصه الأبيض . . ينظر إلي.. يتأكد .. يمسح من جديد .. يصوب عينيه في بشكل مخيف . . يرفع يده اليمنى . . يصيح . .

« هوب لاه . . »

يفتح فمه عن آخره . . أنيابه ، تدخل دفعة واحدة كالإبر الصينية . . آخ ، اولا هذه اليد المكبلة . . هذه الأصفاد الثقيلة . . كنت خنقته . . قتلته قبل أن يصلني..

كنت وضعت في فمه قطعة خشب كالتمساح ، فيعيش بقية أيامه فاغر الفم

قاومت أنيابه على الأقل . . ماالمانع . . لم تبق بيننا حدود . . آي . . آي . . بامكاني أن أدافع عن نفسي بشراسة وإلى آخر لحظة . . برجلي اليمنى برجلي اليسرى.. ليس لدي الخيار..آي أصابعي .. حجري .. يهاجمني بقسوة أتخبط . . أحاول ، بأقدامي ، إبعاده عن وجهي . ورقبتي . . الرجل يتفرج . . يقهقه . . اللعبة مسلية . .

يعضني في قدمي . . إليتي . . يمزق السروال . . يظهر جزئي الأسفل كاملاً ناب آخر يغوص في لحمي.. وجهي . . أحتمي بالأرض . . أضرب برجلي ، كغريق، ضرباً عشوائياً . . أتقلب . . أصيح . . السروال . . اللحم الشري . . الدم . . جزء من أليتي تقدد . .

الرجل يضحك . . يقهقه أكثر من المرّة الأولى . .

الكلب الضخم . . بودوارة . . يجرجرني . . اللعبة ممتعة للغاية . . يبحث من جديد عن وجهي . . أتكوّم..

كم من الوقت مرّ علي ؟ ! إيه ياعاشور ، أنت في مكان أسود ، تضيع فيه أبعاد الزمان . .

ياه . . القط ذو العينين البراقتين مايزال يرمقني بأشتهاء . .

الحركة على السطح قلت . . ومعها يقل الجزع . . أصوات الكلاب خفت . . انقطعت . . ومعها انقطع الضجيج الغامض الذي كان فوق السطح . وفي الرأس..

المسؤولية . . هي المسؤولية يا عاشور . . هكذا أوصوه . . هكذا اتفق معهم . . عليلو معذور . . فهو لا يستطيع أن يقول أكثر مما قال . .

المسألة انتهت بسلام ومعها نمت الثقة أكثر بعليلو الزلميط . . الكلاب التي كانت فوق رأسي ، ليست إلا كلاب الصيد ، جاءت لتتبول وتتغوط في هذه الخربة.. أو لتبحث عن الظلّ . . يجوز ، أن العالم الخارجي الآن غارق في شمس ساخنة كالنار . . يجب أن أحكم من خلال الرؤية الكلية ، لا من خلال وضعي منفرداً . .

فأنا مازلت وسط العفن والرطوبة والتبن والصناديق وعيون هذه القطط المخيفة . . ومع ذلك هناك عالم في الخارج ، يستعد لممارسة طقوسه الجديدة في العيش . . ويعيد النظر ، في عالم مازال في حاجة ماسة إلى إعادة ترتيب دقيقة . .

« إيه يا عاشور . . عليلو رجل ، والرجل لايخون الملح . . »

* * *

- ٤ -

« الوقت في هذا القبو المظلم لم يعد له معنى . . »

الليل . . والنهار . . وتعاقب الأزمان . . والجزع الأبدي . .

انتصبت في مكاني . . تحركت عينا القط . . غابت . . حاولت من جديد أن أتحقق من الحركة أكثر . . كانت هذه المرّة قوية . . إذن لم أكن أتخيل ، كما صوّر لي ذهني في بداية الأمر . .

خطوات . . خطوات مألوفة جداً . .

عاشور . . ألم أقل لك أن زمن الكلاب بدأ ينتهي . . أنت في مأمن يا أخي ، لماذا كل هذا القلق . . عليلو ليس طفلاً . . لا تخش شيئاً ياعاشور . . الخطوات الآن بالضبط فوق الرأس . . تتحرك . . يفتح القبو . . ضوء صغير في السطح . . ارتطام جسم . بحثت عن الموس الصغير . . كان ما يزال جامداً في يدي . . عادت الظلمة من جديد . .

صمت مطبق . . خرخشة ، صغيرة . . نور . . لهب ولاعة . . بؤرة ضوء وسط هذا السواد الكثيف .

— « من . . والإ سأطلق النار . . »

كه . . كه . . أطلق النار ياعاشور . . ماذا تنتظر . . أطلق قدميك للريح أحسن لك ولغيرك . . خنجرك لايقطع أذن كلب . .

— « من ؟ ؟ ؟ . . »

— « ماذا تنتظر لإطلاق النار . . »

— « أوه ياعليلو . . والله الواحد أصبح يعيش على أعصابه ياأخي . . »

جلس . . أوقد شمعة أخرجها من الصندوق الخشبي . . الآن بدأت أكتشف سر بعض الأشياء ، وسر هذه الروائح الكريهة . . التبن يغطي كل أرضية القبو . . عظام أرانب . . وطيور . . وأشياء أخرى مزورعة في كل مكان . . أجسام صغيرة ، سوداء، من نفايات الذين أتوا إلى هذا المكان.. حيوانات . . بشر . .

ـ « أظنك أرتحت قليلاً . . كح . . كح . . »

ـ « يعني . . الكحة .. وجهك أزرق ياعليلو .. »

ـ « أوف من قلة النور فقط . . تناولت « السيرو » على كل حال . . . »

مدّ يده إلى الجراب الذي كان على ظهره . . أخرج مأكولات بسيطة . . وبعض زجاجات نبيذ . . أكلت . . وشربت . . أحسست بنوع من الراحة . .

ـ « المسافة طويلة ياعاشور . . لكننا سنصل مع الفجر . . . »

ـ « كل ماأتمناه أن نجد القوة الكافية لذلك ، ولا نيأس . . »

ـ « عندما يكون الدافع أقوى وأوضح . . تذلل كل المصاعب . . . »

ـ « فالجري ليلاً صعب ، والأصعب منه المباغتات.. »

مدّ يده مرّة أخرى إلى الصندوق الخشبي . . أخرج كومة القصاصات . . أوقد شمعة أخرى . . أخذ يتفحصها واحدة ، واحدة . .

– « هل قرأتها . . . »

– « لم أرتح كما يجب . . ولم أقرأ .. عشت كابوساً..»

– « كل شيء . . كح . . كح . . سيمر بخير .. تريد أن نقرأها . . »

– « والوقت ياعليلو . . . »

قرب معصمه إلى النور . . نظر إلى الساعة . .

– « لدينا الوقت الكافي للقراءة والراحه . . . »

شمعة ثالثة . . اقتربنا من بعضنا بعضاً . . وبدأنا ، نقرؤها بصمت ورقة ، ورقة ، وبدون أي تعليق يذكر . . فالتعاليق الأساسية مكتوبة على ظهر القصاصات . .

« الحمد لله ! ! العالم مازال حيّاً . . »

* * *

ـ ٥ ـ

ـ لندن : « أعرب مجلس نقابات العمال البريطاني عن استيائه البالغ من أحكام السجن التي صدرت مؤخراً على عدد من عمال نقابات العمال . . .

ومما يذكر أن اتحاد النقابات العمالية البريطانية ، يعد ثالث هيئة عمالية دولية تحتج على الأحكام الجائرة التي أصدرتها محكمة أمن الدولة بحق عاشور الماندرينا ورفاقه النقابيين العزّل ، بتهمة تنظيم وقيادة إضرابات مناوئة للحكومة . . . »

تعليق : مجلة انجليزية . . . ١٩٧ (مصادرة في البلاد)

ـ « عبر كل من الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ، واتحاد نقابات العمال الحرة عن احتجاجه على هذه الأحكام ، وطالب بالغائها على الفور ، والإفراج

عن النقابيين المعتقلين ، وإعادتهم إلى مسؤولياتهم الأولى.

تعليق : جريدة يومية عربية / . . . ١٩٧ .
(بيعت بأعدادها هائلة)

— « . . . هل سيحكم عليهم بالإعدام ، كما طالب المدعي العام ، لمحكمة أمن الدولة في مرافعته التي ختم بها محاكمته المبتورة ، والتي تخللتها مشاحنات رهيبة؟؟ فعلى الرغم من التدخلات الدولية العديدة فان السلطة السياسة عازمة على المضي قدماً حتى النهاية .

(بدون تعليق)

— « النقابيون مسؤولون عن الاضطرابات التي نجمت عن إضراب الشتاء الماضي . . حيث استطاع ألاف من العمال المتظاهرين السيطرة على الشارع ، والتخريب المتعمد ، مما أضطر رجال الشرطة الى اطلاق النار ، فسقط واحدٌ وخمسون قتيلاً ، وهو رقم صحيح إذا قورن بالرقم المُبالغ فيه والذي أورده النقابيون المسجونون..»
تعليق : جريدة عربية يمينية / معروفة بالتلفيق من زمان.

ـ « خلال بضعة شهور ، كونت السلطة القضائية ملفاً ، بلغت صفحاته أربعة آلاف وسبعمائة صفحة . ماعدا الملاحق التي يفوق عدد صفحاتها هذا العدد . وما يمكن استنتاجه من هذه الصفحات العديدة هو أن النقابيين كانوا يعدّون العدّة منذ شهور للاستيلاء على السلطة . . »

تعليق / صاحب المقال مرتزق من الطراز

الأول ومعروف بولائه للامبريالية وبحبه

المطلق للغرب .

ـ « هاهي أدوات الجريمة ؟ ؟ إنها بعض القضبان الحديدية والهراوات والفؤوس والحجارة والكرات المعدنية التي لم يعثر حسب أقوال المحامين إلاّ على واحدة منها في المباني النقابية ـ غير أن أقوى دليل أستند عليه المدّعي في مرافعته ، هو العثور على أسلحة في جنوب البلاد . . »

تعليق / . . ١٩٧ ـ جريدة يومية ـ الناطق

الرسمي بأسم الدولة . .

— « قال أحد النقابيين ، في وجه الأحكام الجاهزة، وأمام القضاة المأجورين : وهل أعمد إلى تخريب هذه البلاد التي كرست لها حياتي . لقد أعطيت بلادي مالم أعطه لنفسي — وإذا كانت هناك قوة غير مزورة تشهد على ذلك ، فلن تكون سوى التاريخ . هو وحده له الكلمة الأخيرة .

تعليق/ ١٩٧٠٠ جريدة يسارية فرنسية صاحب

المقال ، صحافي شارك في الحرب الفيتنامية— الأمريكية وغطى الكثير من جوانبها صحفياً .

— « انتهت المحكمة ؟ ؟ ! ! ولكن هل انتهت؟؟..»

عنوان كبير — بدون تعليق .

— « . . . وأنهى ممثل النيابة مرافعته قائلاً :

إن الأمة تنتظر منكم حكماً ، يقضي باعدام المتهمين الماثلين أمامكم . . »

تعليق / عن جريدة يومية محلية .

– « امتناع كل المتهمين الموقوفين عن الإجابة عن الأسئلة ، والتي رأت فيها الصحف الرسمية ، محاولة تعطيل سير القضاء . . »

تعلق / السنة ١٩٧٠٠ – مجلة عربية لبيرالية

– « الشعر أشعث . . الوجه مغلق ، العيون حزينة.. للباس في صورة يرثى لها . . عاشور الماندرينا ، ورفاقه، ضحية لعبة مدبرة . . »

تعليق / مجلة فرنسية / عدد ٩٣٠ – السنة التاسعة عشرة .

– « وجهت للمتهمين تهمتان رئيسيتان هما :

– مسؤولية الأحداث التي عاشتها البلاد في الشتاء الماضي

– والتحضير لعملية تستهدف تغيير شكل الحكم بالعنف . . »

. . . في البداية لم يكن الأمر أكثر من مظاهرة

سلمية نظمتها النقابات العمالية للمطالبة بتحسين الأوضاع والأجور ، في قطاعات معينة ، وضد غلاء الأسعار ، خصوصاً في شهر رمضان – وقد أظهرت النقابات الواعية تأثيرها في صفوف الطبقة العاملة ووزنها على الساحة السياسية . . وقد نسب – وهذا ماثبت فعلا – النقابيون المعتقلون إلى عناصر أجنبية ، مسخرة ، مسؤولية التخريب وإضرام النيران ، وإخراج المظاهرة عن طابعها السلمي..»

تعليق / ١٩٧٠٠ – مجلة عربية أسبوعية تقدمية.

الصفحة ٢٥ . كاتب المقال حضر المحاكمة من أولها إلى أخرها .

– « غادر المحامون القاعة ، احتجاجاً على رفض الرئيس طلبهم القاضي بتأجيل المحاكمة لمدة شهرين . »

– ٦٠ محامياً ، وكلوا للدفاع عن المتهمين ، لم يطلعوا على ملف القضية المتكون من ستة آلاف صفحة ، إلاّ في اليوم الأول قبل فتح المحاكمة ، ولم يسمح لهم الوقت الضيق بالاطلاع على كافة عناصر ملف القضية – مما جعل الكثير منهم يحتج ، ويرفع شكاواه ضد المحكمة . .

– ماتزال عدة منظمات نقابية وسياسية تستنكر هذا الحكم وتطالب ، باطلاق سراح عاشور الماندرينا ورفاقه..»

تعليق / مجلة مغربية / العدد ٩٤٩ –

– « إن مايربطنا بالعرب ، ليس إلا من قبيل الذكريات التاريخية »

تعليق / من أقوال أحد الحكام المأجورين .

القصاصة قديمة – التاريخ مهمل عمداً .

– « . . . . »

* * *

الليلة الثانية

آلام عليلو الزلعيط

– ١ –

« . . ياليام الظلم تفوت ، (١)

وناسها يغيبوا . .

قوي جناحك .

وسيرآ قلبي . . . »

الظلمة القاسية . . رجلان ليس إلاّ . . والسفر ليلاً بثبات . . القلوب مهمومة أكلتها الأحزان ، لكنها مفعمة بالحب والأغاني الشعبية ، ماتزال . .

– « الرحلة ستطول ياعاشور . . »

– « أنا الآن في حالة جيدة ياعليلو . . لتطل المسافة، ماشاء لها أن تطول . . »

– « الذي سلمها لي . . كان خائفاً علي . . »

١ – اغنية شعبية .

— « والله ياعليلو مايزال في العالم أحياء . . »

— « إيه ياعاشور . . ماكان بودّي حرقها ، لكنك، تعرف أنه للضرورات أحكامها . . »

القصاصات ياعاشور . . القيمة المطلقة . . آ الرب العالي . . تدين العالم . . القضية تجاوزت هذه الحدود الضيقة التي يبدو وكأنها معلقة بالانتفاخ والتخمة ورأس المال . .

آه أيها الزمن الأسود الذي يأكل أبناءه أحياء . . يوم تدور الدائرة ، سأبحث عن مسدس أبي الذي رموه في قمامات المدينة . . وأتيك وأسكنها رأسك . . فأنت كالذئاب . . لاتقتل إلا برصاصة فضية معتقة . .

المسألة كبرت ياعاشور . . الدنيا كلها وراكما . . إما ذمّاً وإدانة ومطاردة ، أو الوقوف مع القضية العليا بشرف . . طبيعي ياعاشور . . لا تضيّع أنفاسك أدخرها . بينك وبين الوادي مسافات الدم والقلوب المحروقة . . تحاسب نفسك . . وتحاسب عليلو . . صحيح أنها كانت مهمة . . ولكن للضرورة أحكام . . هو على حق . . وحقّ

الله هو على حق . . القصاصات . . أخبار . . معك أو ضدك. أشياء تحرق أو تؤكل . . راضية والرسالة . . كان الأمر فوق الطاقة . . فأبتلعت كل حروفها . . زمن الثورة ، التي دخلها الرجال وأنصاف الرجال . . كانت الوثائق السرية تلتهم . . فالكبريت والسيجارة والنار . . أشياء ليست ممنوعة فقط . . وإنّما كان القانون يعاقب عليها بصرامة.. الغابات . . عيون العسكر التي لاتنام . . والموت المجاني.. أمور مرفوضة رفضاً باتاً . . فهمت القيمة ياعاشور . . أنت رأسك بدوي . . جلف بعض المرات . . لكن حين تكون الحقيقة أقوى منك ، ترضخ وتعترف . .

« عود ثقاب يخلق تهلكة ، وحرف براق ، يزلزل الأرض . . »

كلمة جدتي المأثورة . . جابهت الحياة ، وعاشت قساوة التجربة . . القصاصات مسائل تحرق وكفى . . وأنت تعرف لماذا ؟ ؟ أتريد أن تسجل حجة ضدك ياعاشور. أنت لم تفعل شيئاً ؟ ؟ ومع ذلك سجلوا على ظهرك ، أنك أصبحت رجلاً خطيراً ، يحلم بحرق المدينة . . بل ومن

المحرضين على إشعال كل أركانها . . هل يعقل ياعاشور أن تحرق شيئاً وهبته حياتك . . وبهذه البساطة ؟ ؟ بل بهذه السذاجة ؟ ؟ طاردوك ياعاشور ، ويطاردونك لقتلك .. ولنفرض أنهم قتلوك ، أو أنهكوا صحتك في السجون ؟ فهل يعقل أن تكون القضايا المصيرية مربوطة بأشخاص .. متى ذهبوا ، طمست القضية ؟ ؟ لا . . ياولد البلاد . . الشيء الذي تجري وراءه . . كومض البرق صعب ، لكنك ستكمشه ذات يوم في راحة يديك ، وتضمه إلى صدرك والرفاق . . نفس السناريو . . بدون شك . . كلنا متهمون بنفس الإتهامات التي يدينها القانون . . ذبحاً . . حرقا.. شنقا . .

« تكلم ياعاشور الماندرينا . . »

« إن عاشور المدْعو الماندرينا . . ولد أحمد البرادعي وحلومة بنت الزكري . . . . »

« متهمون بالمساس بأمن الدولة . . »

« كنتم تعدون العدة لقلب النظام . . »

« أنت متهم بحرق المدينة . . »

كه . . كه . . ماذا تقول في هذه التهمة ؟ ؟ . . حرق المدينة . . قلها ياعاشور . . قلها ..هؤلاء الناس، قادرون على تمييع كل شيء . . الأوراق . . الأوراق ياالماندرينا ياولد البلاد . . يعرفون جيداً . . لا . . بل يتقنون خلطها.. قلها . . قلها بصراحة، فرأسك وضع فوق مدية ، من يوم بدأت تمارس السياسة كسائر أفراد الشعب ، الجياع ..

« الرحلة ستطول ياعاشور . . . »

فلتطل . . سأجري . . سأجري . . إلى أن أسقط أو الثم الضفة ، وأعانق ذات صباح قرمزي موج البحر ، وشمساً بحجم الإناء ، تصعد بخجل من وراء هضبة صغيرة ، أو جبل شامخ تنازل ، عن شموخه لعظمتها.. سأجري أنا عاشور الماندرينا . . وإذا سقطت في منتصف الرحلة ، سيأتي من ينهيها لامحالة . .

الظلمة المخيفة . . الليل . . ورجلان في مواجهة عالم شرس . . وحلم مطارد مصاب في القلب بمدية حادة . .

القرية الصغيرة . . هادئة ماتزال . . كنا نبتعد لندخل الظلمة الحالكة . . أضواؤها تحترق بهدوء ، لاتثبت على لون معين . . ترتجف . . تنداح إلى الوراء . . نوع من الحزن الهمجي ، كان يخيم على أعماقها ، كأنها خرجت قبل قليل مهمومة من جراء هجمة تتارية مرت من هنا بكل دمارها وتخريبها .

هذه البلدة البسيطة بساطة أهلها ، قادرة حين تشاء ، على اقتحام واقعها وتغييره .

أنين ما ، كان ينبعث من زاوية من زوايا هذه البلدة التي تبدو مهجورة ، خالية. الحركة فيها تكاد تكون ميتة.. من تلك الأضواء البعيدة . . في الركن الأخر منها . . وراء هذه الكمشة من الظلال التي تعمي هذه الشوارع الخلفية.. كان الأنين . . وكان شيء يحدث في العراء المطلق ، يقطع القلب . . ويبعث في النفس رعشة الفرحة الأولى . .

« نزلت قافلة للقارة . . (١)

وقافلة في الجبال تنادي . .

(١) أغنية شعبية مغربية .

غدا العيش يأتي بغزارة . .

ولعشاب نابتة ببلادي . . »

تعالت إلى مسمعي الأغنية الشعبية .. آه ياعاشور..
قلبك مفعم بالحب . . مضمخ بفرحة هذه الأغاني . .
لكن هم ؟ ؟ . . و يجدونكم في طريقهم ، سيطحنونكم..
ذرات ذرات حتى تنتهوا . . وأنتم لاتنتهون . .

التفت إلى الوراء من جديد . . داخل بؤرة الضوء..
كان كمشة من الناس يتراقصون ، رقصة مشحونة بالآلام
حيث يلتقي النقيضان . . يختلطان . . حب التدمير . . حب
البناء . . رجل يبدو أنه شيخ . . يشبه زوربا اليوناني
يحمل عصاه وشيئاً أخر يشبه السيف .. يصعدعالياً كالنّمر ،
ثم يرتطم على الأرض . . يريد أن يطير لكنه يسقط من جديد
العصا فوق ظهره ، والسيف ممدّد على صدره بكل طوله..
زوربا . . يعيش ألم الرقصة . . يضرب على الأرض ..
يتمعن لحظة . . ثم يعاود الكرة . . العالم لم يفهمه بعد . .
يتمرغ . . ينط كأرنب . . يهدأ . .

آي . . رجلي . .

– « شوف(١) قدامك ياعاشور ؟ ؟ »

– « م م م . . عرس ؟ ؟ ؟ »

– « يبدو لي كذلك . . فالناس لايتجمهرو ن إلا في مثل هذه المناسبات . . . »

– « أشياء جميلة هذه الأعراس ! ! » .

– « جميلة . . جميلة ياعاشور . . لكن أبناء الكلاب.. »

– « أوه ياعليلو . . يوم تدور الدائرة سنطحنهم كالبرغوث . . . »

– « أجر ياعاشور . . لنبتعد عن البلدة أكثر . . فالمشكلة معقدة . . . »

– « كل شيء حولوه إلى جحيم . . سنرى لمن تكون الكلمة الأخيرة في الزمن القادم . . . »

عرس . . مافي ذلك شك . . وإلاّ لماذا الرقصة القاتلة.. لماذا هذه الأغنية التي تمزق أوردة القلب . . هي المناسبات

(١) أنظر أمامك .

ياعاشور ، التي يترقبها أهل القرية بفرح ، ليغسلوا ، ولو للحظة واحدة ، عذابات سكنت العظم ، وتغلغلت في الأعماق .. يحرقون آخر نقطة حزن بجرعة يأتون بها من أماكن بعيدة . . تهرب ، كما رأيت الرغبة تحملها السفن التجارية ، في رحلة الكسب السريع . .

إيه ياعاشور الماندرينا . . ياوجه العذاب . . بينك وبين الأعراس برك من الدم ومسافات الموت . . يوم تقطعها . . ويوم تحصل على « تفاحة بنت منصور اللي توجد(١) شق سبع بحور » . . تستطيع أن ترتاح، وأن تتمتع بلذة الأعراس . . الأعراس ، التي سيلازمك مذاقها الشعبي دائماً وأبداً . .

« ماجا عذاب دون أسبابه . .

والعيش ماحلاه بتعابو .

قوي جناحك ، وسير

(١) أسطورة شعبية مفادها أن شعبي القرية المشهور وبطلها ، أراد الزواج بأبنة السلطان الجميلة ، فأشترط عليه أبوها أن يأتيه بتفاحة بنت منصور (، تفاحة لا يجدها إلا بعد أن يقطع سبعة بحور ، ناهيك عن الأهوال والمصائب التي يصادفها برحلته .

آقلبي . . . »

من جديد تهادى إلى مسمعي صوت جميل . . أنين.. هي الأغنية الشعبية المفعمة بأحزان الموت التي تقتفي خطانا . .

الأضواء ، كانت تنداح .. تنداح وراءنا ، لتترك المجال لضوء آخر سيونع في الأفق . . هناك . . هناك ، بعيداً..علينا أن ندركه قبل مطلع الفجر .. فالشمس حين تشرق ، ليست في حاجة إلى جمع قصائد من مدحوها.. ألم أقلها لك منذ البداية ياعاشور . . قلبك مفعم بالأغاني الشعبية . . حبك الطفولي واسع ، سعة البحار السبعة . . وسعة هذا الفضاء الضيق الذي جعلوا منه قفصاً . . لكن العالم الآخر ، لو تعرف ياعاشور ، إنه يمقتك . . يكرهك بفظاعة . .

الأغاني الجميلة . . جميلة ياعاشور ، لكنها غير قادرة على مواجهة عالم شرس .

— « الرحلة الأخيرة قاسية ، لكن شيئاً من الصبر . . »

— « لاتخش شيئا . . سنصل قبل مطلع الفجر . . »

— « صحيح . . الحقيقة . . البحر بعيد . . وعلينا بذل مجهود كافٍ . . . »

هذه المرة كنا نعوم في الظلمة . . القرية الصغيرة، أنداحت بأضوائها عند انحدارات الرابية ، التي سقطت فيها مرتين . . تغطي كل شيء . إلا الأغنية الجميلة ، كانت تصر بتحدٍّ على ملاحقتنا ، لكن هذه المرة بقليل من العياء والضعف . .

لذغة أفعى . . نقطة دم سوداء تسقط من مخّي . . أحاول أن أثبت الأقدام وأرحل بثبات . . تطعنني الأغنية القادمة من أفاق تركناها وراءنا . .

« قولوا ليامنة تاتيني ، تشفي هموم قلبي نظرة»

آه ياربي سيدي . . كانت أعماقها مطعونة . . مريم اللويحة . . تبكي في صمت . . تعود ، كالآلام . . كالهلع . قريتي المعلقة في القلب ، التي تزوجت فيها ودفنت فيها، ورحلت عنها ، وعدت اليها مرة أخرى ، وتزوجت بأبنة العسكري مرة ثانية زواجاً فاشلاً . .

الاويحة . . والأغنية التي كانت تقطع لي أوردة القلب ، أنا البدوي المهموم المطعون في أعزّ الأشياء . .

مهمومة كانت . . تتحسس قلبها من الداخل . .

طفلين ، ، زوجونا . . نحمل على ظهرينا جراب الفقر والتعاسة .. كنت أشفق عليها . . طفلة . . قطعة من الجنة . . المغبونة ، مقطوعة من شجرة . . أبوها ، الحوات المعدم ، أبتلعه البحر ذات ليلة . . غاب ولم يعد . . حزن جميع أهل القرية . .

« هو البحر يامريم ، يرزقنا بالتقسيط ويلتهمنا دفعة واحدة . . »

حاذيتها في فراش الدفء . . ينط في عيني خجل بدوي . .

— « آه يادين ، الزلط . . أحبها وأخشى الممارسة..»

بداوتي . . عنجهيتي القروية ، انغلقت على نفسها.. شكلت لنفسها ، مدارات خارج هشيم رأسي ، فأصبحت خروفاً . . تمنيت من كل قلبي ، أن أجدها كما كنت

أعرفها ، يوم كنا أطفالاً . . بعيونها الواسعة . . تحمل كل سخرياتها المعتادة . . بيني وبينها أطفال ولدوا ، ورجال ماتوا ، وأخرون خانوا و . . فقد حجزوها وراء جداو سميك ، وأحاطوا البيت بالعسس ، يترقبون غازياً ، جيبه منتفخ وبطنه كالخنزير . .

فوض الأخوال والأعما م و . .(ريحة الشحمة في الشاقور)، أنفسهم عليها . . لبيعها في سوق تقدم أكثر من غيرها . .

« عيو ن البقرة . . . »

لم أكن فارساً . . ولا بطلاً قطع البحور السبعة وأتى لزوجته« بتفاحة بنت منصور » . . شعبياً مقطعاً . . راعياً .. فلاحاً مستغلاً حتّى النخاع ، كنت »لم يحل بعد المشكلة القائمة بينه وبين الجوع تلك التي ورثها من أزمنة سوداء قطران ، تكشر عن أسنانها ، كلما طحن الجوع واحداً منا .. أحلم كما يحلم جميع خلق الله..وأمنّي النفس ببيت مملوء بالأطفال . . وبايجاد الدفء الكافي لدى امرأة تعشق بدون مقابل ، يزوجونها لي أو أتزوجها أنا بنفسي . .

انتهى إصراري ، بالزواج بها . . لكن الليلة . . الليلة البيضاء . . وحق الله كانت قاسية جداً . .

اقتربت منها أكثر . . رفعت الغطاء عن وجهها الذي كان ينضح عرقاً مع حرارة الصيف . . استدارت بسرعة.. غطت وجهها من جديد . . هي . . هي في قمة حبها الطفولي . . مريم اللويحة . .

« تَعَرَّىْ . . تعرّىْ »

صمت مطبق داخل الحجرة الضيقة . . لم أعاود الكلام إلا عندما أحسست بموت شبقي ، يصعد من أنفي ،مصحوباً بعطر صحراوي ثمين . .

— « ألم تسمعي يامريم ! ! ؟ ؟ إنزعي ثيابك . . »

— « أفعل أنت بنفسك . . »

بالضبط . . لم أخطىء . . هو صوتها ياعاشور . . يأتي نقياً ، مضمخاً بمياه الوديان والأمطار . . لكن ماذا أفعل ياالرب العالي . . مخلوق تعس ينام تحت غطاءات صوفية ثقيلة . . يكاد يختنق ، وأكاد أموت معه . .

شيء وهمي يلذعني في جسمي . . عضلاتي تتقلص، الحرارة تتصاعد من رجلي إلى رأسي . تشنجات . . قلبي يؤلمني . . آي . . ياه . . لماذا ، كل هذه الأشياء . في هذه اللحظات بالذات . .

هو التحول ياعاشور . . بداوتك المطحونة تستعيد رجولتها . .

فاجأني « الوزير »(١) وهو يطل برقبته الطويلة ورأسه الأصلع من خلال الباب الذي فتح قليلاً :

— « أيْوَه ياسيدي . . مازال ؟ ؟ ؟ . . »

— « مازال ! ! »

تلك كلمته الإعتيادية ، في كل الأعراس . . من كل هذه الصراعات ، يهمه شيء واحد الدم ، والخرقة . . وثيقة الشرف . . وإلاّ التجأ إلى الفقيه والعقاقير ، إذا أثبت فشلي أمام هذا المخلوق المغلوب على أمره . . وقتها تدينني القرية »

---

(١) يمتلك تقريباً جميع الصلاحيات ليلة العرس — يقف عند باب العروسين ، خارجاً ، لحظة اقتضاض البكارة — ويقدم كل المساعدات إلى العريس ، إذا أعترضته مشاكل في تلك الليلة .

« إنسان فاشل . . »

« رقية مِتميس . . غلبته مراته . . »

« أعطوا لُه القاوقاو . . والقرقاع . . »

— « مازال ؟ ؟ »

يتصاعد صوت الأغنية . . فجأة يمتصه الصمت والكآبة التي تسيطر على العالم الخارجي . .

« قولوا ليامنة تاتيني . .

في هموم قلبي نسبرا . . »

آخ . . هذا شيء آخر . . لم يكن في الحسبان ؟ ؟ . . من أين جاء ؟ ؟ تفو . . تفو . . يدخل بدون أستئذان .. يجر وراءه عباءة صيفية باردة . . أعوج . . تكهنت في أعماقي أنه بدون سروال ، وكان كذلك . . عضوه منتصب . .

« عليك اللعنة ياوجه النحس » . . كان فقيه القرية.. حلاّل عقد الأعراس . . كل شباب القرية مرّوا على يده..

عاريين ، كطفلين ، كنّا ، نزلنا في اللحظة ، من رحم أمرأة تحمل للمرة الأولى . . أخذنا ننظر إلى بعضنا بغباوة وسذاجة . . وحياء مطلق . . حاولت أن أنزل عيني عن وجهها ، لكني لم أستطع . . فشلت حيث كان يجب أن أفشل . .

أخذ نهدها المنتصب . . انقادت له ببراءة . . انتبهت إلى تحت . . غاظني الموقف . . أحسست أني بدأت أخسر بداوتي.. أخرج قلماً قصبياً ، ومبراة قديمة .. وأخذ يكتب على صدرها العاري رموزاً وأشكالاً لم أفهمها ، رغم أني حاولت فهمها . . ثم رسم دائرتين صغيرتين ، فوق حلمتي نهديها . . شيء واحد كنت أخشاه ، أن يترك أصابعه تتزحلق إلى ماتحت السرّة . أو يفرك نهديها بأصابعه ، فيضيع صوابي وأرتكب حماقة . لايباركها أهل القرية.. فأنا بدوي مسكين ، بكلّ أفراحه الصغيرة ، وأشيائه الثمينة التي يدافع عنها . . عيناي حمراوان . . نظر إلي . . كتب على ورقة بيضاء بعض الكلمات ثم رسم جداول كثيرة . . التفت إليها . . حمراء كانت..خجلت . . سلمها الورقة . . ملأ عينيه بلحمها الغض . .

« أمحو الكتابة ، واشربوها مع بعض . . »

ثم خرج بسرعة وهو يبسمل ويحوقل . . ساعده الوزير ، ثم أغلق الباب وراءه . . وبقينا وحيدين . . أنا وهي ، والرغبة المحجوزة في أطرافنا التي أتعبها حرّ الصيف . .

ياه يامتي(١) خيتي . . يدفعونني ، أنا البدوي الأرعن، الذي ضيع شبقه ، أن أقتحم لحمها..وأزرع في داخلها كل حقدي القبلي ورعبي . .

وازع في داخلي ، كان يبرد كل عضلاتي النافرة..

بهيمة ياالله . .

— « هيا . . أرونا الآن عرض أكتافكم . . »

صرخ الوزير ، الذي أقتحم الحجرة كالجزار . . أفرغ على رأسينا إناءً مملوءاً ماء بارداً . . كنا نرتعد كقطين صغيرين استحمّا مرغمين حتى الأعماق ، وسط بركة ذات فجر صقيعي في أحد الأيام الشتوية . .

(١) آه يا أمتي وأختي . . (كلمة شعبية تفيد الحسرة) .

في تلك الليلة ، التي قليلاً ماأفكـّر في أشياء خارجة عن النوم . . تذكرت . . تذكرت بمرارة وحب . كل الأمور العادية ، التي بدت لي في تلك اللحظة بالذات غير عادية..

كان الشتاء وكنا . . الغطس والعوم في الوادي يومياً، كانا كالأكل والشرب . . واللعب . . كنا نتمنى أن نذهب إلى البحر ، لكن البحر بعيد ، لا يدخله إلا الصيادون والذين جمدت غصة الموت في حلوقهم . .

« موت لبحار آبوي

لمواج لَـهـْبيله آبوي . . . »

نتعانق ببراءة . . فأحس ، أنا الطفل البدوي الذي لم يفتح بعد عينيه ، بأوراق شجرة ، يابسة ، تتساقط ، وتحترق في داخلي . . وتحس هي بارتعاشة تغزو كامل جسدها . . هي لذة اكتشاف الأشياء الجميلة يااللويحة . . أحاول أن أضمها ، وتحاول هي كذلك أن تضمني إلى صدرها وتعبث بالاستماع إلى دقات قلبي المتهافتة نحو شيء مجهول .. وحين نصل إلى أعماق بعضنا بعضاً يقف بيننا شيء يشبه الخوف ، بسيفه المطلق . . البداوة.

فنبتعد عن بعضنا شيئا فشيئاً ، وكأننا للتو ، اكتشفنا ، أننا كنا مخطئين . . وحين يأتي عمّي « المهري » بعصاه الثقيلة . . نغطس في الماء . . نغيب في الأعماق . . يضربنا بالحجارة . . فنفاجئه ، ونحن على الضفة الأخرى من الوادي . .

— « صح . . صح . . يااللويحة ياعين البقرة . . »

اللويحة عمي المهري هو الذي أسماها لأنها كانت رقيقة ، وضعيفة جداً . . ولأنها كذلك ، في العيد الصغير والكبير ، ووعدة الولي « سيدي بوجنان » حين نتسابق نحن الأطفال ، كانت هي أول من يصل الضفة الأخرى .. عيناها ، كانتا واسعتين كالبحر . . ورحبة كالفضاء

« نقبضك نمسخك قدام أبوك . . »

— « آخ . . يحسدوننا حتى في الأشياء الباردة . . »

— « نحن يااللويحة ، نستدفىء بكل شيء . . »

في الخارج . . الأغنية الشعبية مصحوبة ببعض صراخات الإحتجاج . .

« بْكاوْا حتى عياوْا بالدمع الجاري

العديان في حبابي . . كلها يشالي . .

شي سالبه عقلي . .

شي عاجبه الحال ...»

– « أوف ، هذا السيد أبطأ ؟ ؟ . . »

– « أتراه يروض بقرة وحشية . . »

– « مريم اللويحة . . قبضة واحدة ، وانتهى كل شيء . . »

– « يوه . . عاشور الحلوف . . رقية ممّيس ؟ ؟ »

تشجعت ، لست أدري كيف ؟ ؟ ؟ . . وجدت نفسي فوقها.. كانت تئنّ ، وتحاول أن تنتشل ابتسامة ضعيفة ، لم تدر أين تستقر ، من أعماق ، أعماقها . . عرق يتصببُ من كل أعضائها . . بينما كانت ترتسم بين أفخاذها أشكال سريالية من دم الغزو القبلي ، الذي مات على خرقة بيضاء ، أعدت خصيصاً للمناسبة . .

انتبهت إليها . . ابتسامة فرحة تجتاحها . . هي ذي مريم ياعاشور، هي ذي مريم بعيونها الواسعة البحرية ..

– « عيون البقرة »

– « زمان ياعاشور . . »

ابتسمت من جديد . . تذكرت اللحظات الطفولية، التي كنت أسخر منها . . فتمزق ثيابها الصغيرة . .

« اللويحة . . اللويحة . . اللويحة . . »

قبلتني بشراسة بدوية تعانق لأول مرّة . . ببراءة مطلقة . . أنّت من جديد . . زحلقت يدها اليمنى بين فخذيها . . تمددت على الفراش . . اصفرت . . تحركت حركات عشوائية . . انتابها ألم موحش . . خافت . . أحسست بقلبي يغادر مواقعه . . حاولت أن ألبسها ، بشق النفس ، غلالتها . .

« جاري ياحمودة . . ياحمودة . .

ياجاري ، دبّر علي . . »

– « سليمان . . الوزير . . البنت أغمي عليها . . »

ـ « سلامات . . سلامات . . خير . . خير ياعاشور؟؟»

دخل ، ودخلت في أثره نائبته في الوزارة (طبعاً في العرس) ، في يدها نفس الإناء الرخامي . . مملوء بالماء.. أفرغته عليها . . نهضت . . انفتحت عيناها . . بدوية وحق الرب . . بدوية بريئة . . أرعن هذا عاشور اللعنة.. أصابها نوع من الذعر . . حاولت أن تتشبث بصدري عبثاً.. مرة أولى وثانية . . ارتعدت . . عصفورة مهددة بالذبح ، وراءها ألف صياد . . فتحت عينيها عن آخرهما . . سألتني بهلع . ولم تبال بالحرس الملكي ، الواقف عند رأسينا ، المكلف بذبحنا من الرقبة . .

ـ « عاشور ؟ ؟ . . »

ـ « أنا هنا يامريم . . »

ـ « هل سال الدم ؟ ؟ »

عندما انتبهت إلى الوجوه الواقفة على رأسها . . أغمضت عينيها . . أحنت رأسها . . تهالكت على الفراش . . أصابها حياء بدوي . .

— « خذي يامريم . . »

وضعت الخرقة الملطخة عند رأسها . .

« مريم . . »

انتبهت . . زغردت . . غزتها فرحة غريبة هي نفسها ، ربّما لم تكن تتوقعها . . فالأيام التي بيننا تشكك في أمر البكارة . . أعادت الزغردة عالياً . . عالياً . . اختلطت بالأغنية التي كانت توتراتها تتصاعد وترتفع . . ترتفع لتشق كل الأجسام الصلبة . . نسمعها . . نتحلل إلى ذرّات ، يمتصّها الصراخ . . والفرحة وطلقات البارود..

« حلاب بويا الحليب . .

وياسيدي لنوار عليك ضاوية . . »

خرج الوزير ، ونائبته ، يحملان فوق رأسيهما الخرقة البيضاء المبرقعة بدم امرأة ذبحت في القلب . . أحبت بكل عنفوان ، تحت خيمة الذعر القبلي . . يرقصان إلى جنب ، رقصة « الحميمة»(١) . .

---

(١) رقصة شعبية معروفة في الغرب الجزائري .

كانت بقربي شاردة تحت صدمة الفرحة . . بينما كنت أبكي في داخلي . . أحس بألم شديد . . في رأسي، كانت تتوالد ديدانٌ قزحية ، سوداء . . سوداء . . خضراء . . حمراء . . صفراء . . وهمومٌ ثقيلة ، لايستقبلها إلا الشارع . . بسرعة لبست ثيابي الجديدة . . وبسرعة قذفت بنفسي إلى الخارج، ومعي كل أفراحي الصغيرة ، وهمومي . .

« ياصاح راني وسط الحملة . . »

كانت الأغنية ماتزال تبحث عن علو أكثر من علو الأشياء المعتادة . . تعكس في رحلتها هذه الآلام ، أفراحاً ستأتي مع أول راية تعانق هذه الشوارع التي تنام دامعة على جوعها . .

عندما انتهت الوليمة . . وغادرنا الأحباب ، كنت أبكي . . أبكي . . ولو وجدت طاقة طفولية ، كنت أفرغت عيني وحلقي ، من المدامع المحرقة ، وصراخات الولادة المكتومة . .

إيه يامريم . . ياطفلة طعنها الموت من الخلف . . أنا لاأندم على الموت . . فالأمر كان فوق طاقتي ، وفوق

طاقتك ، ياجرحاً ، ممتداً فوق مساحة القلب الضيقة .. (الله غالب ياالطالب) . . كلما تذكرتها ، أحس بحاجة إلى دمعة تخرج مع قطرة دم من عيني . . بعض المرات أفلح في ردعها ، وفي أغلب الأحيان أشعر بها تتساقط فوق قلبي جمرات متقدة . .

ماذا أقول عنها أنا عاشور الماندرينا ؟ ؟ .

كانت امرأة . . امرأة كسائر النساء . . ومع ذلك كنت أحس بالرغم شراستي البدوية أني في حاجة ماسة إليها . . حاجة تفوق الأمور الإعتيادية . . الفراش مثلاً ، الذي كنت أتصور أنه الحل الأول والأخير لهمومي الصغيرة، وحتى الكبيرة ، منها . .

« إيه . . ربما لأنها كانت شقية مثلي . . »

يوم سقطتها الأخيرة فوق فراش الموت ، وهي على آلام الولادة . . لم أبك كثيراً . . ومع ذلك، لو وجدت ، وقتها ، طاقة تدميرية ، لكنت أتيت على العالم من أقصاه إلى أقصاه . . حميميد . .

« حميميد وليدي كان رجلاً . . »

كان نقطة دم ، ساخنة ، سقطت من رحمها ، فاحترقت بعد نزولها . . كان الوجه الثاني لمريم اللويحة . . عيونه عيونها . . قلبه قلبها . . ضحكته ، ضحكتها.. لكن سحنته كانت هزيلة..هزيلة جداً..حميميد، كان مثل هذا الزمن..رغم رقّته كان لايلين أمام الأرياح العاتية . . مريضة ، به، كانت ، يوم فاجأتها الأوبئة الخبيثة بكل أثقالها . . مرض التيفوس — السل — السعال ، وأشياء أخرى رطوبة البحر والوادي والقبو وآلام المخاض . . المسألة كانت غاية في الصعوبة ، وفوق طاقة جسم هزيل ، يكاد يكون عديم المقاومة ، في هذا الجو البئيس ، المملوء بالعساكر البدوية التي لاتعرف الا ّ الشرف ، مقلوباً على رأسه ، والدم الذي يمحو العار . .

مع ذلك . . شيءٌ يشبه الفرح الحزين ، كان يتوالد داخلي . .

« مع آلام المخاض . . تأتي دائماً أفراح الولادة . . »

إيه ياعاشور . . الزلط والتفرعين(١) . . والفنطازية.. نحن ياوليد البلاد ، في هذا الزمن، المصادر ، نولد تعساء

(١) التفرعين (فرعون) — الأنفة والتجبر .

ونعيش تعساء . ونموت وغصة الرغيف والحب ، في حلوقنا . .

أنت ياحميميد . . كنت رجلاً . . فحلاً . . عشت حياتي بكل متاعبها . . أنت من الجيل المحروق ، مثلنا.. فقد ذقت عن قرب مرارة اليتم . . وعرفت بعمق ماذا يعني طفل بدون أمّ . . حتى الغزالة تقول : اللهم أبي ولا أمّي كما كانت تحكي جدتي ،التي نبتت الحشائش ، والأشواك على قبرها . .

أنا عاشور الماندرينا . . عشت الهم ،والغبينة وقساوة الزمن المقطرن . . لست حزيناً بزواجي ببنت صالح العسكري المتقاعد . . معذور أنا من الأساس . . أحب الطفل الذي ورثته كمشة آلام عن مريم اللويحة . . ولا أستطيع أن أفعل كل شيء من أجله . . حميميد كان في حاجة إلى عطف امرأة . . تحتضنه . . تضعه داخل قلبها . . في حاجة إلى يد تمسد على شعره الأصفر ، القمحي.. في حاجة أكثر إلى ذراعي أنثى ، تقرب سحنته الهزيلة من الصدر الناضج الدافىء . . وأنا عاشور . . ولد حلّوءة بنت الزكري . . لاأستطيع أن أوفر كل الحنان لحميميد..

نقطة الدم السوداء . . العذاب المشترك .. قمة الشق المهدّد من سيوف القبائل . .

كذبت على مريم ، يوم وعدتها ، طوع نفسي ، بأني لاأتزوج بعدها ، ولا تتزوج بعدي . .

— « مريم أعدك بأن لاأتزوج بعدك . . »

— « وحميميد ياعاشور ؟ ؟ »

— « بالرغم من ذلك . . سيكون كل وقتي لحميميد أو لابنتنا التي ستأتي ؟ ؟ . . »

ولم يكن الأمركذلك .. ببساطة ، أمام الواقع الشرس ، فشلت ، وتزوجت بنت العسكري ، وأثبت جبني . . بل وكرسته في..خوفي عليه من تعاسة اليتم .. والإحساس به .. كان أقوى مني . .

لكن بنت صالح العسكري . . العالية . . كانت تنبذ كل قطرة دم تأتي من مريم اللويحة . .

عشنا وعاش معنا الداء اليومي . . استفحل الأمر بشكل واضح . .

في القيلولة . . عندما تصير أشعة الشمس عمودية ،

كالرماح الملتهبة . . بصمت أسألها عنه . . بعض المرات بعيني فقط ، حتى لاينقلب العالم رأساً على عقب . .

— « العالية . . حميميد . . »

— « يلعب في الخارج مع أقرانه . . »

— « الشمس قاتلة ، تذيب الحديد . . »

— « أوف تخاف عليه ، ليس قطعة زبدة حتى يذوب ؟ ؟ ! ! »

— « يالمرأة الله يهديك . . هذا من الملائكة ؟ ؟ ! ! »

الملعونة . . كل شيء عندها يدرس من البدايات .. كانت عاقرا .. تكرهه كدم الأسنان . .تخشى بعض المرات، أن أرسلها قبل مطلع الفجر إلى دار أبيها ، وعلى رأسها، حصير بالٍ ، من الحلفاء القديمة، العتيقة .. لم أفعل.. ومع ذلك ، بأفعالها تلك كانت تطمح إلى تقريب النهايات . .

أتدحرج إلى الخارج . . أجده ، في تلك الشمس المحرقة . . يبحث كقط صغير جائع ، عن قطعة خبز ، وعن ظلّ تحت البوابات الخشبية العتيقة .. وجهه محروق..

يعلوه تراب مزمن . . عند مخرجي أنفه ، ارتسم طريقان من المخاط الأسود اليابس ، الذي احترق فوق شفته العليا . . صغير . . وحزين . . اليتم والشقاء . . وبؤس الخبزة المشدودة فوق رأس سلك مكهرب . .

— « حميميد . . بابا . . »

— « بابا . . بابا . . »

يلتفت إلي . . هو يعرف صوتي ، بين ألف صوت .. يأتيني مسرعاً . . أضمه إلى صدري . . يعانقني بحرارة طفل صدره متلهف إلى حنان مفقود .. إيه ياالرب العالي.. الطفل مهموم منذ أن نزل من الرحم . . مايزال في حاجة ماسة إلى الدفء . .

— « لماذا لاتدخل . . الشمس حارقة ؟ ؟ »

— « أخاف منها . . تضربني »

يجيب في براءة طفل محروم من كل شيء . .

— « من ياحميميد ؟ ؟ »

— « ماما العالية . . ماما حلومة أفضل منها . . »

– « أنت جائع . . »

يبتسم قليلاً . . لا يتكلم . . يدخل إبهامه في أنفه ، ثم يتركه،يتدحرج لاشعورياً إلى فمه . . وتبدأ،تنمو في قلبي ، حكاية طفل صغير . . تسلل الهم إلى داخله ، خيوطاً من الدم الفائر . .

أحمله بين يدي .. يغمض عينيه من أشعة الشمس.. أدحرجه . . ينبسط . .

يضحك . . أدخل به الدار . . تتفجر ثورتي ، وحقدي القبلي ، وتستيقظ رجولتي المتلفة ، لتصبح بركاناً ، يرمي حمماً ملتهبة ، كيفما اتفق . .

« يابنة الفاعلة . . يابنة التاركة . . »

– « اسمعي ياالعالية . . بقاؤك هنا ، مرهون ببقاء هذا الطفل . . »

– « أنا مللت من دارك ، وأوساخ أولادك . . »

(يابُورب) . . جنية مجنونة . . ماذا تريد من طفل لو وضع الموت أمامه ، وقيل له بأنه طعام،لأكله . . هذه

هذه هي الوحشية الضارية ياعاشور عندما تكشر عن أنيابها غيرة مطلقة . .

ماذا خسرت ياعاشور ؟ ؟ أنت لم تخسر شيئاً.. ألة فراش . . حتى أضعف الأمور البيولوجية لم تنجبها منها.. لاتحمل هماً ياولد البلاد . الأيام القادمة مع هذه الزوابع، ستكون رائعة . .

— « إذا تفاجى الضباب ، الدايربنا .

ياأهلي . . (. .)

وسار علامنا واقف على دربنا

ياأهلي . . »

آي رجلي . . آخ . . عادت هذه الآلام القديمة . . والمسافة مازالت طويلة . . الله يحفظ . . كارثة . .

* * *

- ٢ -

« كح . . كح . . كح . . »

أجر . . أجر . . ياعاشور . . بينك وبين البحر مسافات العذابات . . لابد أن تصل قبل مطلع الفجر ، صاحبك . . إيه ياعليلو . . بدأ السعال يأكلك مع هذه البرودة القاسية التي تنفذ في الجسم كالمدية . . السعال.. السعال ياعليلو ، أنهكك من الداخل . . أنت تواجه عالماً مدججا بالغضب والموت . . تواجه ذئاباً بشرية . . لاتكن ذئباً واحذر الذئاب . . آه لو يقبضونك ياعاشور . بكل بساطة،ستُعاد إلى ماكنة التعذيب . . سيعدمونك بالتقسيط.. بالتقسيط . . ستعلق من عينيك . . من رجليك . . من هذا الجسد الهزيل . . والكلاب . . الكهرباء . . وولد الرومية الذي يقفز عند رجليك كالذئب . . والخوف . . والرجال الغامضون الذين يملأون الشوارع ، ودهاليز السجون..

أجر ياعاشور . . أنت لست إلا ماندرينا ، ولن تكون

سوى ذلك . . أجر، لحمك وجسدك، وروحك معلقة على أقدامك . . أنت ركبت رأسك ، ومن ركب رأسه ، عليه أن يدرك قيمة الأشياء . . أن ينفذ إلى أعماقها ، كالسيف بكل وعي . . .

كلاب الصيد البشري ، ماتزال بعيدة ، لكنها وراءك على طول . . شئت أم أبيت ، وستظل كذلك ، إلى يوم تفنيها أو تهزمك . . معك ، منطق التاريخ . . وراءك العالم الذي يجر وراءه جرابات الفقر الخاوية . . وراءك الشهداء الذين سقطوا طعناً من الخلف . . وراءك الحقيقة المطلقة ، التي سترفرف أعلامها في الساحات ذات يوم . .

أجر وقل ماجريت . . فالذين اصطادوا الشهداء وراءك . . أجر . . الذئاب أعياها المسير . . إنها تلهث عياءً . . المسافة طالت عليها . . لكن أحذر ، فهي عندما تفقد كل أمل في الحياة ، تضع لغماً في قلب العالم ، وتفجره عن آخره . . لا يهمها شيء من مصير البشرية . .

(أجر ياالغزال) . . إجر وقل ماجريت . . اللي تلتفته أدخره أنفاساً . .

– « كح . . كح . . إذا بقينا على هذه السرعة سنصل قبل الوقت المحدد . . »

– « سنصل ونأخذ قسطاً من الراحة . . بدون شك . . »

– « إيه ياعاشور . . شخنا ونحن مازلنا شباباً . . »

– « ياأخي عليلو . . نحن جيل إذا لم يقتل في الأرحام، يموت مبكراً ، ويبقى أبداً . . »

– « كح . . كح . . »

– « مزكوم ياعليلو ؟ ؟ ؟ . . »

– « صدورنا تآكلت ، ياولد البلاد . . »

– « من يدري ياعليلو ،نكون قد مررنا بنفس الهم . . »

– « كح . . كح . . إيه ياعاشور ياحبيبي . . سنلتقي ذات يوم ، ونفتح قلوبنا عن آخرها بعضنا لبعض . . وسأحكي لك الكثير . . »

– « الممرات من هنا صعبة ياعليلو . . »

– « لاأتصور أنها أصعب من الطرقات التي قطعناها اللهم الا الوادي . . »

— « الوادي ؟ ؟ مازلنا في حديث الوديان . . »

— « هذه المرة لن ندخله ، سنحاذيه ، رغم أن ذلك سيسبب لنا متاعب لأنّ جوانبه ، محاطة بنباتات العريش ، والعرعار ، العليق . . غابة صغيرة من الأشجار القزمة . . وقد نقطعه ، إذا اضطررنا لذلك ، لأنه يختصر لنا المسافة إلى حدّ ما، لأن ضفته الأخرى، قليلة النباتات، مما يسهل السير بسرعة . . »

إيه . . أمور سيأتي أوانها ، ونعيشها أحببنا أم رفضنا . .

الآن ياعاشور . . ماذا الآن ؟ ؟ ؟

عليك أن تجري كالغزال . . على الأقل يمكنك أن تستريح بعض اللحظات ، إذا أنت وصلت قبل الموعد المحدد . . وستصل لامحالة . .

« حين يكون الدافع أقوى تسقط كل المتاعب . . »

أجر ياوليد البلاد . . أجر . . أنت مع رجل . . سيد الرجال . . السل . . والأمراض الأخرى ، وإرادة الفولاذ . . أنت مع عليلو الذي يمنح حياته ، لأجل أن

تصل سالماً إلى البحر . . أجر أنت لست مع قذارات الساحات الكبيرة ، التي باعت « « موسمي » لسنديانة الطغيان « رخيصاً » رخيصاً ، مقابل ضحكة سرعان ماتتلاشى لتتحول إلى أنياب مسمومة ، تنهشهم واحداً واحداً، من أوردة القلب .

إيه . . في هذا الزمن الموبوء . . المصاب بسرطان الدم . . والذي يأكل أبناءَهُ كالقطة . . كل شيء يحتمل الوقوع . . وعليك ياعاشور . . أنت البدوي الأرعن ، الذي أفلت من الموت مرّات . . وخرج كالدودة ، من ردمة المناجم الفحمية . . عليك أن تمشي بصمت وثبات . . على رؤوس أصابعك قبل أن تفاجئك طعنة قاتلة ، لاتعرف مصدرها . . وتموت ، تحمل بين جروحك آثار الدم المغدور . . وحكاية وجه رئوي ، كان على رأس التهلكة وظل طي الكتمان . .

« القرية غابت . . والأضواء انداحت . . »

العوالم السوداء . . الظلال . . الظلام . . الحزن . . كانت تجثم على القلب وتمر بتثاقل . . أصوات متجانسة،

تملأ هذا الصمت المطبق ، المخيف . . نقيق الضفادع في وديان بعيدة ، وغامضة ، قد نسقط فيها بدون أن نراها .. أصوات بعض الحشرات التي لاتكاد تميز بينها . .

عالم مخيف . . ورجلان يبحثان كالنورسين ، عن دفء البحار البعيدة . .

كانت تتكسر تحت أقدامنا ، العيدان الصغيرة المنتصبة، خناجر نابتة في عمق الأرض . . تكسرها، يحدث خشخشة، تدفعنا لاشعورياً إلى الالتفات وراءنا بجزع ، بحثاً عن مصدر الصوت . .

وقفنا لتحديد الموقف وضبط الطريق .

« مالك واقف ياالفرخ . . تحرّك . . أجمع السنابل..»

أيام الحصاد القاتلة ، الحارة . . لغو الحاج خليفة.. وأنا الطفل الجائع مرمي وسط الخلاء والفيافي بجوعي وتعاستي . . وحكاياتي الصغيرة . .

« اسمع ياالجرو الملعون . . لاتضيع السنابل . . أحملها جيداً وإلا طِرْ عند أمّك . . »

وراء ماكنة الحصاد . . طفلاً كنت سدّت في وجهه كل أبواب الحدود ، التي كان يقتات منها ، هو وقريته المرمية ، في استهزاء على هوامش الإنقراض . . فلاحاً صغيراً أصبحت . . متعدد الخدمات . . حسب الجو ، وحسب الظرف . . لكنك ياعاشور . . صغير . . صغير . . صغير ، كالقملة . . صغير . . نملة في عالم كبير كالبحر .

طفلاً ، كنت ، أتساءل بهدوء ، وخلسة . . فأنا مازلت أخشى أن يكون في رأسي الحاج خليفة ، يهددني كلما ذكرت له أن فلاحاً من فلاحي القرية قتل أولاده السبعة ، وقتل بودينار . أحد كبار الإقطاعيين في البلدة، ثم أتى على نفسه . .

« ترى لماذا قتل حمزة نفسه بتلك البشاعة ؟ ؟ »

« من أين ورث الحاج خليفة كل هذه الفدادين . . »

فهو خبيث . . وثبت أنه ولي من أولياء الإستعمار . . يكون قد لعب لعبة . .

إيه يا عاشور المانارنيا . . لم تكن تعرف أكثر من هذا

السؤال . . ومع ذلك كانت أحاسيس الحزن لا تغادرك . . كنت تشعر بكرة حمراء ملتهبة تنمو في داخلك . . تتذكر اللعنات . . البصق . . وبصمت ، وخوف . . تواصل حمل السنابل ، تنام على ظهرك كل صراخاته القاتلة . . الثقيلة . . الفاحشة . . وكلامه المشتت ، الذي كان يطعن به أملك ، والنساء اللواتي كنّ يعملن عنده . . كل هذا كان مقبولاً إلى حد ما . . الروخو في العاصمة . . في حاجة ماسة إلى الدراهم . .

« إيه ياوليدي . . الدراهم من أجل الدراسة ، ليست خسارة » .

كانت تظن أنه ، سيعود اليها ذات يوم بشهادة تمحو معادلات الجوع ، وتضيع أبعاد الفقر ، الهندسية . . آه لو كانت تعلم أنها ، كانت تنمي ضفدعاً، أول من يطعنها حين يأتي زمن الحسم . . الدراهم . . مزيج من العرق الأسود وكلام الحاج خليفة الذي لاتتحمّله حتى الدابة . . وأنا الطفل الشيطان وأمّي ، نأكل حصى الطرقات وما تقذفه الوديان . .

ـــ « أصبر ياوليدي . . أصبر هذا هو الزمان الغدار اللي قالواعليه . . وصلنا عصر الدجّال . . »

ـــ « كلب يا أمّي . . وحق الله كلب مكلوب(١) . . »

نطرح رؤوسنا في الأرض . . ونواصل بصمت . . نلم السنابل أكواماً ، ونقربها من بعض . . استعداداً لشحنها . . والصيف . . والنار . . واللغو المرّ من أفواه لا تصلح ، إلا منافض للسجاير . .

عند العودة للكوخ المرمي ، هناك . . أحس بآلام حادة . . تشنجات . . تنتابني ثورة مكبوتة ، ورغبة ملحة للبكاء ، وإفراغ كل صراخات الولادة . . أتألم . . يادادي تحترقان رجلاي . . النار في جسدي . . اللعنة عليك ياوجه النحس ياالحاج خليفة (القرقرة)(٢) . . عيدان السنابل المحصودة ، تقف كآلاف الخناجر المسنونة ، الثابتة في الأرض . . خطوة واحدة،تجبرك على ترك قطعة من جسدك . . القدّيد . . الدم . .

(١) مسعور .

(٢) الضفدع .

الليل . . الظلمة . . ورجلان في مغامرة ، نحو البحر . .

فاجأتنا كتلة سوداء . . انتصبت أمامنا كالحاجز . . مرّة أخرى وجدتني أتحسس خنجري الصغير . . من يدري ؟ ؟

« تبكي أمه ولا أمّي . . »

في البداية ، أنتا بتني رعشة ثقيلة . . خوف . . وبعدها ، ربطت الأمور ، بعلاقات عادية جداً . . أدخرت أنفاسي . . هو يعرف الناحية بدون شك . وإلاّ لماذا خصص لي عليلو دون غيره . . بين يديه ، كل الإجابات . .

— « عليلو . . . »

— « لاشيء ياعاشور . . هذه مدرسة القرية ، التي جئنا منها . . »

— « بعيدة عن الأطفال الصغار . . »

— « بعيدة ومع ذلك يأتون إليها قبل غيرهم . . »

— « إيه ياعليلو خويا . . زمن كهذا يأكل صغاره . . »

ــ المسألة ، أمرّ من ذلك . . قبل شهور ، أغلقت وما تزال كذلك حتى اليوم . . »

ــ « كه . . كه . . حملة نابوليون . . . »

ياعاشور . . ياالماندرينا ، لماذا تتحسّر . . ألم تفهم بعد؟؟ مثل هذه الأشياء الصغيرة التي تغلق أفواهها ، بأمْرٍ رسمي.. تعمق المصائب . . تعمق الوعي ، وتقرب النهايات من البدايات . . أجر ياعاشور . . فلولا هذه الآلام الوحشية، لولا المأساة التي تعيشها حتى النخاع ، لولا . . ولولا.. ماكنت وجدت أبداً . بهذا الشكل ، وفي هذا الظرف، أبداً . . ندمن الأحزان . . صحيح . . لكن الويل لأحزان لاتلد الرجال . .

مدرسة ، مرمية على هوامش الانقراض . . يبدو أن الأزمنة ، لم تتغير . . أو على الاقل تمشي ببطء . . تخاف أن يُكسر البيض من تحت أقدامها . . وحميميد . . وهذه الأشياء المحكومة من الرقبة . . التي تغلق وتفتح: بالأوامر الرسمية . .

ــ « الولد لازم يقرا ياالعالية . . »

– « أنت تضيع وقتك هدراً . . »

– « إذا كانت الدراهم ؟ ؟ سأمنح عينيّ من أجل ذلك . . »

حميميد . . كان يجب عليه أن يكون رجلاً . . في زمن نفتقد فيه الرجال . . وكان كذلك . . وسقط وفي حلقه غصة الرجولة . . المستحيل ، ليس مستحيلاً، إلا بقدر ماهو بعيد . . عندما يصبح المستحيل ، في اليد ، يصير الحديث عنه، تماماً كالخبز والماء ..أبسط الأشياء وأعقدها.. كنت أقول . . العيون رخيصة من أجل ضمان مستقبل حميميد . . لاأريده أن يحمل رأسه بين يديه ، ويذهب عند قاتليه ، كما فعل أبوه . . لابد أن يعلم وفي صغره، أن المدرسة مهما كانت ، فهي أمرٌ ضروري . . فليدرس التفاهات والشعارات الفارغة . . فليملأوا مخه بالأكاذيب.. لكن سيأتي يوم . . ويعرف الحقيقة . . الحقيقة ، التي لايمكنها أن تتسخ . .

وسيثأر لأبيه ، لكل ضحايا وطنه،من الذين كانوا على رأس جوعهم ودفنهم قبل أن يموتوا . .

– « الطفل ياخويا الزيتوني »

– « مايكون ، غير الخير . . »

الزيتوني . . الزيتوني . . كان ولد أمرأة ورجل.. زيتونة كان ، لكن قلبه كان شمساً . . المعلم الوحيد ، داخل مدرسة ، لم‌تعرف إلا المدرسين االكسالى قبله . . الأطفال كثرة كالذباب . . لكنهم يقرؤون . . المعلم الوحيد . كلهم يتعلمون . .

رغم أنفي . . مع نفسي طبعاً..دعوته ذات ليلة إلى قبوي . . العشاء كان (الله غالبْ) . . ذهب الناس . . بسطاء كانوا . . مخلفين وراءهم في قبو هزيل ، ديوناً، علي أن أدفعها قبل نهاية الشهر . . ومع ذلك كنت أحس بألم مصحوب بفرحة . .

– « الطفل ياالزيتوني . . حالتنا الله غالب ياالطالب..»

– « ياأخي لماذا عذبت نفسك . كل هذا العذاب ؟ ؟ .»

– « أوف . . مش ، خسارة في وجه الرجال . . »

– « حميميد سيكون رجلاً إن شاء الله . . »

المشكلة ، كانت فوق قلبي نقطة دم محروقة . . الآن يمكنني أن أتنفس الصعداء . . أن أملأ رئتي بهواء القرية الليلي . . الجبل الذي كان على ظهري . . جاء الفارس المغوار ، الذي سيعود بأخته « ودعة » وحطمه عن آخره.. إلى ذرّات . . ذرات . .

— « عشت أيها البطل . . عشت ياودعة مشتتة سبعة.. »

تدريس الأطفال ، في هذه الأوطان ، الملقاة على هوامش الانقراض ، مهمة، غاية في التعقيد . . ومع ذلك، نحن مستعدون لنزع الجلد وتقديمه، بدون حساب .. لايهمنا نحن الفقراء في هذه الحياة ، إلا أن نعيش بشرف . .

لم نطلب البحر ذات يوم للشرب . . لكن هم . . هم الملعونون . . الخبزة ينزعونها من الأفواه ويتهموننا في الأخير ، بالتمرد . . بالعصيان . . باختراق القوانين . . فلا كان القانون ، إذا كان الهدف ، منه ، أن يأكلنا من العينين ؟ ؟ ! ! ! . .

حميميد . . أيها الرجل الصغير . . أرفض ، أن تنتهي بك الحياة ، إلى تعاستي . . كن رجلاً . . كن إنساناً

طليقاً من كل الأصفاد التي يؤكّلونها ، لكم ، مع حبات القمح المستورد . . وقطرات الماء . . أرفض . . أرفض.. ولا تكتفي بذلك . . لاتكن ابن أبيك . إذا كان أبوك لايساوي بصلة . . « كونتا كينتي » . . أرادوا مسخه إلى قرد « توبي » . . لم يفلحوا . . فقد ظلت « مانديكا » معلقة ، في القلب إلى آخر لحظة . . وعيناه ظلتا مثبتتين على الحرية وعلى الغادي والرائح ، والهارِب والذي أعطِيَ حريته . .

— « العولة قليلة ياعاشور . . »

— « الأيام في بلادنا تأكل بعضها بعضاً ، ياالعالية..»

ذات ليلة . . نمنا جميعاً على جوع موحش . . كنت تعساً في فراشي . . متكوماً على نفسي كالقنفذ . . على يميني حميميد . . وعلى يساري العالية . . كانت تفكر.. تتألم . . وكنت حزيناً ، بشكل أفشل في تصوره ، في هذه اللحظة بالذات . . انتبهت إليه . . صغيراً كان . . سقط في اللحظة ، من رحم ، امرأة سافرت قبل أن تراه ، وقبل أن تسعد بأفراح الولادة . . حميميد . . جزؤه

الأسفل ، كان عارياً . . انعطف الفراش المهترىء عند أقدامه . . الطفل يكبر . . والأيام تمضي . . والأحزان تضيق الصدر . . وعاشور الماندرينا ، المهموم ، الذي علّموه أنّ الجوع قدرٌ من الأقدار . . لايملك إلاّ فقره، وحجرة تعسة . ومطبخاً مهدداً بالسقوط في كل ثانية . .

— « الولد كبر ، ياعاشور . . »

— « إيه ، من بعد ؟ ؟ . . »

— « المطبخ واسع » وبامكانه . . »

— « قصدك ، إرساله ، إلى الموت . . »

كه . . كه . . لماذا يا العالية ؛ ؟ . . يازوجتي القاسية، التي نبتت في قلبها كل الأحقاد الطبقية . . لماذا ؟ ؟ ؟ . . أنا أراهن ، ومتأكد من نجاحي ، أنك إذا بقيت ، أكثر من خمس دقائق ، تحت ظلّ سطح المطبخ ، سأقدم عيوني للحريق ، وأسكن دائماً وأبداً ، أنا وحميميد في المطبخ ، ونترك البيت لك وحدك . .

حميميد ككل . .

— « بامكانه النوم فيه . . »

— « حرام عليك . اتقي الله ، ياهذه المخلوقة . . المكان خطر جداً . . »

— « لكن المكان هنا ضيق . . »

— « فالدار التي تحضننا ، بامكانها، تحمّل قطعة لحم صغيرة زائدة . . »

— « و كيف نواجه الموقف ؟ ؟ ! ! »

— « أي موقف ؟ ؟ . . فالولد ، هنا يبيت يرتعد من البرد ، فما بالك بالمطبخ ، الذي تظل الحيّات تتجول فيه بشكل مطلق . . »

— « وجوده في المطبخ ، أحسن له ، ولنا . . »

تكوّر حقد شبقي داخل رأسي . . دمعة ، تنهمر فوق قلبي ساخنة ، معرقة . . تنمو في خفاء مطلق حتى تصبح بحراً من الدموع ، والآلام .

صعب أن يبكي الرجال ، في قريتنا ، ، ومع ذلك ،

كان ضروريا جداً أن أبكي ، وإلا انفجرت كالقنبلة الموقوته . .

طبعت على جبينه ، قبلة صغيرة . . أبعدته عن الحائط البارد، الذي كان ملتصقاً به . . وضعت فوق صدره معطفي الخشن . .

كنت أفكر . . لم أنم . . انتبهت إلي . .

— « ألم تنم بعد ؟ ؟ »

— « الدنيا قاسية يا العالية . . »

— « الصبر . . »

— « الصبر يدبر . . »

— « قدر الله ، والمكتوب . . »

هذه الأمور أدينها من الأساس إذا كانت هي المطية لارتكاب كل هذه المجازر . .

تكفر ياعاشور . . تكفر . .

آخ .. أنا لا أكفر ، ولكني أقُرّ حقيقة ، يعرفها كل واحد ، مهما كانت ثقافته ، ومهما كان مستواه . .

ـ « المكتوب ياعاشور . . »

ـ « المكتوب ، الذي يسطره لنا ، بودينار ، والحاج خليفة . . أكلونا ، ونحن نمتص أصابعنا ، ويأكلوننا وقد أصبحنا ندرك معنى الجوع . . »

ـ « لولاهم ، لما حصلت على قوتك اليومي . . »

ـ « كه . . كه . . بعدما أخذوا مني الأضعاف . . »

في ثورة غاضبة ، لم تدر أين تستقر . . أصبحت ، أشياء غير عادية ، تدفعني إلى الكفر . . إلى الالحاد بكل شيء يتمشى ضد المنطق . . آه . . ياعاشور ، حتى الذين وثقنا ، ووقفنا بجانبهم في الحروب . خانوا . . خانوا ياعاشور . . كانوا أوّل من رفع المدية لذبحك من الأذن حتى الأذن . .

في تلك الليلة أطلعتها على سرّ كان يسكن صدري منذ زمن بعيد . . وعلى أمر كنت قد عوَلت عليه بمساعدة الزيتوني معلم القرية ، وبعض الأصدقاء وبعض الأقرباء ، الذين يحلون ويربطون أهم القضايا . .

ـ « عوّلت يا العالية . . »

— « أوف ، الرب إذا أعطاك يعطيك في أي مكان وجدت فيه . . »

— « لنجرب ، فرنسا . . باريس تحل المشاكل . . »

— « وأنا . . ومن قال كل هذا ؟ ؟ ؟ . . »

— « مسألة بسيطة . . إذهب إلى فرنسا كغيري ، وأضمن على الأقل ، حياة مقبولة تخلصنا من نباح كلاب بودينار ، والحاج خليفة . . »

— « صممت ياعاشور ؟ ؟ »

— « ... ... »

— « وأنا . . والطفل . . »

— « أنت في دارك . . وحميميد ، عند جدّته . . »

— « هكذا ؟ ؟ . . ؟ ؟ . . »

— « أوف . . المهم . . تصبحين على خير . . »

— « ؟ ؟ ؟ . . . ؟ ؟ ؟ . . . ؟ ؟ ؟ . . . »

- ٣ -

« وسار علمنا ، واقف على دربنا(١) .

ياأهلي . . »

لا ياعاشور . . مازال . مازال . . كنتم تمتلكون جرأة البدايات ، فبدأتم . . مازال ياعاشور . . مازال . . أحلم . . أحلم بالبحار السبعة أنك قطعتها . . أحلم أنك قتلت الوحش ، وعدت بتفاحة بنت منصور . . أحلم . أنت البطل الذي غادر القرية ، مكرهاً ، حزيناً ، وراح يطأ الجبال ، وبكلمة السر ، جعلها تنشق . . تتحلل إلى ذرّات ليصل إلى « ودعة مشتتة سبعة » . . أحلم ، لكن لاتهرب إلى الأمام . .

الهروب إلى الأمام ياعاشور هزيمة . . فشل في مواجهة الواقع بتحدٍ . . ماهذه إلاّ بداية الرحلة . . اضغط على نفسك أكثر من أي زمن مضى ..المطلوب الآن ، أن تصل قبل كل المتسابقين . . أنت لم تعد وحدك ياعاشور . . هناك

(١) أغنية شعبية .

آلاف الناس ، يدفعونك . . يجرون معك ، لتصل خط الوصول رجلاً ، وبشرف .. وفي الاتجاه المعاكس ، هناك آخرون يجرون . . يجرون . .

آه . . لو كان السباق في الوديان . . سأريهم قيمة الجري . . كنت سأحتل المرتبة الأولى بدون شك ، خصوصاً ، إذا غابت مريم اللويحة عن المسابقة لظروف طارئة . . »

الآن أنتما والبرّ ياعاشور . .

حبيبان . . وعدوان في الدم . . كلاكما يطمح إلى تذليل الآخر وإنهاكه..وكلاكما يريد إعادةالنظر في الآخر، حتى تمشي الأمور كما كان يجب عليها أن تمشي قبل زمن من الأزمان . .

الظلمة . . الخوف . . ومع ذلك حين تكون الأشياء الجميلة معلقة ، تسقط كل هذه الاعتبارات من الحساب..

« هذه بداية الرحلةالحقيقية ياعاشور . . زمام الأمور، بين يديك ، فكن رجلاً وامش بثبات . . »

— « تعبْتَ ؟ ؟ . . »

ـ « لا . . لا . . أبداً . . فقد ارتحت مافيه الكفاية . . »

ـ « تفو . . كح . . كح . . هذا الليل ثقيل كالرصاص . . »

ـ « سعالك يخيفني ياعليلو ، بصراحة . . »

ـ « نوبة فائتة . . الدنيا ظلمة . والفرصة الأولى لاتعوض . . »

ـ « المسافة طويلة . . . »

ـ « مازال ياعاشور . . نتمنى ألاّ يسحب هذا البرد معه ، الأمطار ، حتى لاتعيق رحلتنا . . »

الليل كان . . ورجلين كنا . . نقف بتحدٍ في وجه البروق ، والرعود ، والأرياح البحرية ، الباردة . .

أحس ، أن شيئاً يجثم على ظهري كالصخرة . . ومع ذلك أشعر أنني يوم أسقط ، تتأثر ، ولكنها ، لاتسقط أبداً . . أخشى ، رغم أنفي ، أنا الطفل البدوي الذي استقبلته برودة الليالي . من مباغتات تقفز عند أقدامنا كالخطيئة . . فالمفاجاءآت كثيرة . . والليل فحمة قاتمة . .

وبلاد تلتصق بحلقها ، مرارة العذابات وملوحة الدماء المتجمدة . . كل شيءْ أصبح فيها ، يدعو إلى الخوف، والحذر . .

إذا قطعنا المسافة بهذه السرعة ، وبدون عائق . يقول رفيقي – الذي ترك رئتيه لوحشية البرد ، والسل – سنصل قبل مطلع الفجر . وقبل حتّى أن تدب الحركة في البحر. ويمكننا وقتها أن نستعيد أنفاسنا . قبل أن أرحل أنا ، ويعود هو إلى مركز انطلاقه . . ولكن ياالله لو يحدث العكس . . أي معنى يصبح لهذا الجري ، وهذا الموت الذي يلتصق بالحلق كالعلقة . . ستسقط كل المخططات التي تسكن رأسينا . . قد تصبح شكلاً من أشكال الفوضى. وقد نضطر لتسليم أنفسنا إلى الكلاب المسكونة بأكل اللحم البشري ، والتي تتشمم آثارنا الآن . . ثم ماذا لو تساقطت الأمطار الباردة ، بشكل غزير . . ببساطة . . سنضطر إلى التوقف ، ربّما . . من يدري ؟ ؟ ويلقى علينا القبض، أو تجرفنا السيول إلى الجحيم . . نقتل ، قبل أن يفاجئنا موت في أحد الأركان المظلمة ، المرمية،هنا أو هناك . .

لا . . ياعاشور . . لا . . من يهرب ، يضع كل

هذه الأمور في حساباته . . الشتاء . . الليل . . الأمطار . . وحتى سقوط الثلوج ، ليس بالأمر المستبعد . . على كل حال،أنت تمتلك جرأة البدايات ، فبدأت . . أما الأشياء الأخرى ، فستأتي من تلقاء نفسها . . إذا سقطت أنت ستواصل هي ، بعدك آلام الرحلة . . وتتذكر ، بعمق ، أنه كان ذات يوم،رجل أسمه عاشور الماندرينا.. تحفظ عن ظهر قلب ، كثرة الأرقام . .

« كونتا كينتي » . . كان الليل ، خناجر مسنونة، متأهبة للغزو ، تترقب مرور قافلة ، تطالب بحق النوم — والخبز — وا . . وكان الهروب هو الحل الوحيد . . كان مصاباً بداء الإصرار . . غادر المزرعة ، متسللاً ، في بداية الظلمة . . يحمل في صدره غليان الاسم المزور « توبي » وأغاني « مانديكا » البدائية . . الرفض ، لم يكن مسألة ، مجردة . . « كونتا » الاسم ، يعني حضارة « مانديكا » بكاملها . . يعني الحرية البدائية . . والنضال المرّ من أجل حياة أفضل . . حين فاجأوه ، داخل الغابة.. تكهنوا،فيما بينهم ، أن السيديحمل طاقة،لاحصر لها من

الدمار ، ستنفجر ذات يوم ، ويسافر تحتها العبيد بصمت، إلى بحار إفريقيا . .

ضحكوا ملء أشداقهم . . أرادوا قتله،والتخلص منه ، بصفة نهائية . . لكن ذلك كان يعني ، افتقاد عبد، عبد صحته ، وسحنته القوية ، لم تستنزف بعد . . وبدأ دم القهر يغلي . . يغلي . . طالعوه بفكرة . .

آه أيها الزمن الذي ينتعل أبناءه . . قاوم . . « كونتا كينتي » القلب الإفريقي ، المفعم ، بالأغاني . . لكن الكلاب ، ذات الأنياب الحجرية ، وشباك صيد بني آدم ، كانت أقوى منه . . حاول أن يقاوم . . وجد نفسه ، مكوراً داخل شبكة ، أعدمت فيه كل حركة . . آه لو فقط ، لم تكن لديهم كلاب . . لو لم تكن لديهم هذه الشباك . . وتلك الأشياء الفولاذية ، التي تقتل بسرعة . . كان أتى عليهم واحداً ، واحداً . . وقهرهم بقوة ، لأنه ،كان الأعظم .. لكن الظروف الملعونة ، تطلع في أغلب الأحيان ، هي المسيطرة على الموقف . . بادروه ، بعد أن ربطوه بشجرة البلوط المتفرعة، داخل غابة وحشية . .

ـ « توبي . . كنت تريد الهروب ، أيها الزنجي القدر . . »

ـ « أنا لست توبي . . أنا كونتا كينتي ، ابن مانديكا . . »

تأمله بعين مهزومة . . الذي كان فوق الجواد . .

ـ « كه . . كه . . سنؤدبك . . »

نزل الرجل الغامض عن جواده . . سأل صاحبه الذي كان مشغولاً بتخويف « كونتا » . .

ـ « نفقأ عينيه ؟ ؟ »

ـ « هذا لايكفي . . »

ـ « ننزع عضوه . . »

ـ « هذا كذلك ، لايكفي . . »

ـ « نقضي عليه نهائياً..فنحن نمتلك كل الصلاحيات..»

ـ « لدي فكرة ، وهي عند أهل مانديكا تعني الموت . . »

تحسس « كونتا »،الذي لم يصبح « توبي » بعد..
تحسسه من رأسه إلى قدميه . . ها . . ها . . هذا هو المفتاح الذي يوصلنا إلى غرضنا ، وهدفنا الذي ننشده، وهو ألاّ يحاول « كونتا » الهروب . .

— « أداة الهروب . . لنقطع جزءاً منها . . »

سقطت في داخله ، غزالة مذبوحة . . أصابه ذعر موحش . . احمرت عيناه . .

— « أرجوكم . . أقتلوني أحسن . . »

تضاحكا عالياً . . عالياً . . أنتصرا . . فجأة ، امتص الصمت المخيم على الغابة . القهقهات الرخيصة . .

ظهر في عيونهم وحش أحمر ، يتحرك بصعوبة.. له سبعة رؤوس، لايأتي عليه إلا رجل واحد ، أخو«ودعة، مشتتة سبعَة » . . كونتا كان بئيساً . . إنساناً ، ولم يكن لابطلا ، ولا نصف إله ، يحمل نصف حياته في إحدى زوايا ، قدميه . . انتبه إلى بشاعة العملية . . أحس بشيء بارد، كقطعة ثلج،يتساقط في داخله . . الطاقة التي تضيع الآن ، لو كانت بين يديه . . لو كان هرقل لو كان أخا

« ودعة » . . سيكسر كل هذه السلاسل والأشجار . . والغابات بكاملها، ويأكلهم نيئين . . ففي مانديكا يأكلون امواتهم . قبل أن يأكلهم الذئب ، والدود . . صرخ بأعلى صوته . .

— « آي . . آي . . اقتلوني . . اقتلوني . . »

صرخ ، صرخة ثانية ، سقطت في نداءات طفل كان يتدلّى من رحم امرأة سوداء، ارتفع صوت الأغنية الإفريقية في رأسه . .

« آه ياذيك الشمس الطالعة

إلَ شفتي مامّا حنّا . .

قولي لها ، وليدك

دموعه ضارعه . . »

تراقصت أصابع رجليه عند أقدامه . . سال الدم بغزارة . . ارتجف كذبيحة مضمخة بالدماء . . بكى ، ولم تسقط من عينيه دموع . . دارت الغابة، والناس ، دورات غير عادية . . اختلطت الأشكال . . غاب عن كل ما يحيط به . .

حمل كتلة من اللحم المشوه ، فوق عربة نتنة . . وحين استيقظ ، وجد نفسه يتنفس العفن ، في حظيرة الخنازير ، وأحس، بآلام حادة تأكل رجليه . .

إيه يا « كونتا » . . أنت واجهت الحرية، بالهروب منها – اليها فكانت النتيجة . . المرات الأولى ، أذاقوك من وجبات السياط اليومية . . ثم الرحلة ، بأبشع موت ، عند أهل مانديكا . . لقد خسرت في تكهناتك . . لكنك لم تخسر القضية الكبرى . . أحلامك التي تزن الجبال ، باقية ، ماتزال . . هناك « كيزي(١) » ستصبح امرأة وتنجب سوداً آخرين . . كالنمل . . يهربون مع الفجر الأول ، بعد أن يتركوا وراءهم حفلة الثيران والديكة ، للذين قادوهم من إفريقيا إلى هذه الزوايا الموحشة . . هؤلاء يا كونتا، كلاب ، تضرب من الخلف بلطافة . . ويوم تحس أن مصالحها فوق منقار عفريت . . تتحول إلى غول بسبعة رؤوس . . تمارس حقدها علانية . .

كونتا . . أنت لم تخسر شيئاً . . لم تهرب لنفسك . .

---

(١) ابنته .

هربت من أجل السود كلهم . . من أجل « فانتا » التي أكلوها من الصدر بعد أن رموك في زاوية ، ورموها في زاوية أخرى . . من أجل -« كيزي » التي ستأتي محملة بالحب الأبدي . . من أجل « فيدلر » العازف ، الذي سقط على المقطوعة الإفريقية ، المحبوبة . . ونام إلى الأبد فوق ربابته ، . . من أجل الذين سمعوا بك ، ولم يعرفوك ولم تعرفهم حين كنت تبحث عن مانديكا التي تنام خلف البحار وآلاف الأميال . . وعن كل ما يمكن أن يمنحك دفئاً وخبزاً ورجولة . . وعن الفرح الطفولي ، الذي قتلوه . . هربت .. حين أعادوك إلى الحظيرة.. كنت بدون أصابع.. تركتها ، وراءك طعماً للذئاب . . نحن لا نختلف يا « كونتا » . . أنت هربت . . وأنا الآن أمارس نفس الهروب . . وراءك الكلاب . . ورائي الكلاب . . تحلم . . أحلم . . ومع ذلك ، فقد يلقى علي القبض ، وأقتل بالتقسيط كالحلاج . . العيون . . فاللسان الذي يتكلم كثيراً . . فالأرجل . . فالعضو التناسلي . . فبقية الأعضاء.. قضبان الحديد التي تدخل وتخرج في المؤخرة بألم قاتل . . وبعدها ، أقدم في صحون النخالة . . طعماً للكلاب . .

صفاً واحداً ندين الذين كانوا على رأس المهزلة . . وكان لابد أن نموت .. فسقطنا واحداً واحداً بشمُوخ .. في وقت كان الآتون الصغار ، يتدلون من الأرحام وفي رؤوسهم قائمة الذين سقطوا بشرف والذين خانوا . .

* * *

- ٤ -

ــ « آي . . آي . . أخ . . الله يلعن الشيطان ولد الحرام . »

ــ « سقطة هذه ياعاشور . . خير . . خير . . »

ــ « المهم . . كح .. كح .. لم يكسر منّي شيء..»

ــ « هذا . . هو المهم . . . »

يسعل ، بشكل مخيف . .

ــ « ياعلي . . سعالك . . سعالك ياعلي . . . »

ــ « أوه ، ياعاشور . . لاتضخم الأشياء . . مزكوم، لاأكثر ولا أقل . . . »

أتذكر أني رأيت ، وجهه ، تحت نور الشمعة في القبو . . أزرق كان ، كمن لسعته أفعى عمياء . . إنّها اللحظة المخيفة ياعاشور ،بدأت تنمو وتضع أكفها جميعاً لتطويق عنقك . . لخنقك . . إنّها اللحظة عينها ياعاشور، التي يولد فيها أطفال القرى الجائعة ، من جرح الأرحام..

أمطار خفيفة بدأت تتساقط

– « المطر ، ياعليلو . . الله يحفظ . . »

– « شيء عادي . . سحابات صيف . . »

– « في فصل الشتاء . . كه . . كه . . »

الشيء الأسود ، بدأ يتكور في داخلي . . يفرز مواد سائلة ، تسرح في كامل الجسد . . لكن أمراً ما ، كان يدفعني إلى الجري . . الجري أكثر من أي زمن مضى . . التنفس بعمق والجري . . الجري ، أكثر فأكثر . .

– « الحل في أيدينا ياعاشور . . لنضاعف من سرعتنا . . »

– « وهذا مانفعله ، ياعليلو ؟ ؟ ! ! ! »

الليل ، والأمطار والمدن البعيدة . . القرى المعلقة على جدران القلب . . والمسافات الطويلة ، وأوجه الأحباب التي فجت الذاكرة ، وأخذت تطير كالعصافير المهاجرة قرب عيني . . والفرح الذي ينمو صغيراً . . جنيناً وسط كومة الأحزان . . وأنا وهو . . ومواجهة العالم الشرس . .

الأمطار تشتد . . أصبحنا نحس وقعها . . في لحظة ما ، لاأستطيع ضبطها ، خيُل لي أني رأيت بروقاً وسمعت رعوداً ، وأكثر من هذا ، أني خفت . . ياالله ، ماذا، لو تقف هذه المعيقات في رحلتنا . . مصائب لم نحسب لها حساباً . . أوف ؟ ؟ وماذا، لو كنا قد أخذناها بعين الإعتبار؟؟ هل يغير ذلك شيئاً من صلب المسألة . . ماذا بامكاننا أن نفعل ، إذا فاجاتنا رعود ، وبروق وأمطار ، غزيرة . . ووحل . . تكثيف السرعة ، حتّى الآن هو الحل الوحيد . .

« أجْرِ ياعاشور . . أجر . . هذا عرس الذيب فقط ؟ ؟ ! ! »

كه . . كه . . عرس الذئب . . أم عرس الأغوال والأهوال . . أطفالاً صغاراً كنا ، ننط كأرانب وحشية.. نحب الحياة. . اللعب . . والجري في الوديان والطرقات..

« ياالنوصبي

ماتصبيش علي . . »

عندما تشرق شمس على آخرها . . وتهب أرياح

خفيفة على غير العادة ، تجر وراءها أمطاراً رقيقة ، تسح على وجوهنا الضعيفة الهزيلة . . وتسح . . يبدأ شبق أبيض، يفتح عينيه في دواخلنا . . يحركنا بفرح . . نجري . . نجري . . العالم كله لنا . . لنا وحدنا نحن الأطفال . . نصيح بأعلى أصواتنا ، حتى نحس بأشياء كنا نحملها في الذاكرة المزدحمة بالأخبار والأرقام وال . . تحترق» تحترق كأوراق الدالية القديمة . .

« عرس الذيب . . عرس الذيب . . »

الجري . . والزكام . . والمخاط الذي لايتوقف عن السيلان . . على غفلة من بعضنا، نمسح أنوفنا ، المحمرّة، بألبستنا الداخلية ، حتى تظهر في الهواء الطلق، بطوننا الصغيرة ، الهزيلة . .

صبية كنا بكل ، تحدياتنا . . نغني . . وفي القرارات تتدحرج مختلف السؤالات.. ياالله، لماذا الذئاب وحدها ، يحق لها التمتع بمثل هذه اللحظات الجميلة . . وتقيم أعراسها ، وأفراحها ، في هذه اللحظات ، من هذه الأزمنة الشاذة، الخارجة عن كل ماهو عادي . . صبية ، نتحدى. وداخل التحدي نبحث عن لحظة أكثر شذوذاً وتوتراً وجمالاً ..

« عرس الذيب . . عرس الذيب . . »

« عرس الذيب . . »

صغيراً كنت . . أصبعي ما يزال يتزحلق بحرية من أنفي إلى فمي .. الجوع التلذذ بالمخاط . . وأكل الطبشور، الذي يسْرق من الحوانيت والمدارس ليلاً.. لم نكن نقرأ.. نحب الأقلام والكراسات والكتب . . والألواح السوداء.. لكننا لم نكن نقرأ . .

سألتها ذات ليلة شتوية ، باردة ، بفضولية صبي يريد أن يتمتع برهة، بفرحة الاكتشاف . .

ـ « ماما . . »

ـ « نعم ياعاشور ؟ ؟ . . »

ـ « لماذا حين تزوج الميسوم ولد عمتي رقية . . سقطت الأمطار وأشرقت الشمس في آن واحد . . هل هو والذيب من سلالة واحدة ؟ ؟ »

تبتسم . . تبدي فرحة . في حجمي ، بفضولي... طفل مشاغب منذ الصغر . .. تحاول أن تدخل وعيي . .

تصغر ، إلى أن تصبح صبية في سني ، وتبدأ في قص حكاية ، حفظتها عن ظهر قلب . .

« . . يلتقيان . . الإنسان الشره ، عندما يجوع ، وسط عائلة كبيرة العدد ، يأكل حتى الشبع ، على حساب إخوته . . والذئب ، عندما يجوع ، يأكل حسب قانونه ، الذي سطره انفسه . . يأكل الخرفان العزلاء . . ويوم يشبع ، يكون عرسه ، هذا الذي تتحدث عنه . . والميسوم ولد عمتك رقية . . كان يفعل نفس الشيء في صغره ، ولهذا حين كبر ، التقى هو والذئب في عرس واحد . . ولا يستبعد أن يصبحا من سلالة واحدة . . »

أمي ، كانت حكيمة . . حكيمة وحق الله في سذاجتها . . أصبحت أفهم أنّ القضية كانت أعمق من أن تكون مجرد حكاية عابرة . . وعرس ذئب . . فالذئب لم يكن شيئاً آخر ، سوى ابن آدم ، المفترس ، القاتل ، الذي يعيش على لحم غيره من أبناء جلدته . .

صحيح جداً ، أن الميسوم عندما ، كان صغيراً ، كانت ، دائماً أمّه تفاجئه وهو يلحس الصحون ، والقدور

حتى يأتي ، على كل مافيها . . توبخه . . ويعاود نفس العملية . بنفس الطريقة . . فيتألم إخوته جوعاً ، وتتألم هي ، بينما هو، بخبث، يحاول أن يصطنع ندماً . . لكنه حين يقف وجهاً لوجه ، مع الطنجرة ، ينسى كل تعهداته . .

« ياالنو صبي . . صبّي . . »

ياالله كارثة . . كارثة . . المسألة بدأت تتعقد . . نسينا الرجال الغامضين . . نسينا أنفسنا . . نسينا نباح الكلاب . . المسافات ، والوصول قبل الفجر . . هذا هو الهدف الأساسي . . لكن . . ياالله ، هل يعقل ؟ ؟ ؟ .

حبات المطر أصبحت ثقيلة . . البروق . . الرعود.. والليل والمسافات الطويلة ، وحكايات الأدمغة الصغيرة، التي تهرب الفرح والصراخ والتحدي . .

« عرس الذيب . . عرس الذيب »

« ياالنو صبي . . صبي

ماتصبيش علي

حتى يجي خويا حمو .

ويغطيني بالزريبة . . »

ـ ٥ ـ

ارتطامة جافة . . كم مرّ من الزمن ؟ ؟ مازلنا على هوامش الساعات التي تنهشنا نهشاً . .

ـ « علي ! ! ؟ ؟ لابأس ؟ . . »

ـ « لابأس ياعاشور . . كح . . كح . . سقطة خفيفة . . كح . . كح . . السعال . . آخ . . . »

الليل والمطر . . ورجلان بئيسان في مواجهة عالم شرس . .

تلمست . . ثيابه . . الكل مضمخ حتى العمق . .

نلبس أمواه الأمطار، التي تجلد كالسيف . . البرد . . الأرجل تغوص في أعماق الأرض . . رمال مبتلعة . . القضايا الكبرى . . الله . ؟ ؟ ؟ هل قامت القيامة . . كل الآلام استيقظت . . الوحل . . الموت في العراء . . عواء الذئاب الذي لايبتعد عن نباح الكلاب . . نفس الفصيلة . .

الأرياح تصفع من جديد ، وبقسوة . تحمل معها الأمطار الباردة . . نرتجف . . الارجل تغوص . . الأيدي مطلية بالوحل .. تعاودنا الرجفة . . نتساعد . . ونعاود المشي بتعب . . يسقط .. أمدّ يدي إليه . . يتشبث . . ينهض . . نواصل الرحلة ، بتثاقل . . أتكىء عليه . . يتكىء علي . .

آه ياعاشور الماندرينا . . الدنيا تفتح فاها على آخره . لابتلاعك دفعة واحدة . .

« والله . . عضّ الكلاب ولا هذا الموت الأحمر ..»

ماذا قلت ياعاشور . .

— « المشي أصبح مستحيلاً بالتقريب . . »

— « مازالت هناك إمكانية لذلك ياعاشور . . قاوم، وسنصل رغم هذا الجوّ التعس . . »

آي . . آي . .

يسقط من جديد . . أساعده . . يقوم بسرعة . .

أحسست أن قلبي صعد إلى فمي . . كرة من الدم الأسود.. أخرج رجلي من الوحل . . أبحث عبثاً ، عن أرضية صلبة . . أمدّ له يدي . . فيعاود المشي بصعوبة . . نحاول أن نجري بعنف . . بقوة . . بتحدٍّ مطلق ، فنجد أنفسنا فجأة ، نزحف على بطوننا . نلحس الوحل ورطوبة الخلاء الموحش . .

رجلان . . والليل ، والمطر البارد . . الحلوق جافة رغم الأمواه التي انهمرت فجأة ، وما زالت تنهمر بقوة غير معهودة ، ولا متوقعة ، مع أننا ، حين غادرنا البلدة، في بدايات الليل ، كان الجو رغم برودته الخفيفة ، يدفعنا إلى الاطمئنان . . الثياب الهزيلة التي فوقنا ، التي استبدلناها في القبو ، لاتدرأ البرودة حتى عن طفل صغير . .

— « يدك ياعاشور . . أعطيني يدك . . كح . . كح . . »

— « بسرعة ياعليلو . . الوقت يضيع . . »

— « الساعات تمر . . سنصل في الوقت المناسب . . »

– « المسافة ياعليلو . . المسافة الّتي قطعنا ها حتّى الآن هزيلة . . »

– « يبدو لك . . قاوم فقط . . هذا هو المطلوب الآن . . »

نقاوم . . في مثل تلك المواقف ، يقف المرء بين أمرين . . أن يدافع عن نفسه بشراسة ، أو يموت . . يموت بشكل عادي . .

نقاوم بضراوة . . يزداد عنف الأمطار . . القوى تخور . . لكن شيئاً ماكان يحترق في داخلي كالقش ، فيعطيني دفعاً قوياً . . القضية .. القضية الكبرى ياعاشور .. الّتي تساقط من أجلها الرجال كحبات المطر . . كالنمل..

– « آه ياعاشور . الآلام في رجلي . . في ظهري.. الروماتيزم . . كح . . كح . . السلّ . . »

– « لا . . لا ياعليلو . . قوتك تقتل السبع . . »

– « أصبحت أخاف الموت . . مسلول . . لايعرفون بأني مسلول وإلا ماتركوني أقوم بالمهمة . . أنا الآن هنا .. وليكن مايكون . . »

ـ « كحة بسيطة . . زكام . . برد . . فور وصولنا سأطلب لك دواء . . »

ـ ياعاشور . . . لانمرض . . وإذا أصبنا قضينا نحبنا . . »

ـ « أنت تهذي ياعليلو . . أتكيء علي . . . هكذا . . »

ـ « إيه ياعاشور . . الدنيا جميلة . . وأنا لاأخشى الموت . . فالأجمل منها ، هوأن يموت الانسان واقفاً . . »

ـ « هيا . . هيا يكفينا من الهذيان . . عودك أصلب من عودي . . »

أحاول أن أكذب . . يعرف سرّ الكذبة من البداية . . حاله، يعرفها أحسن مني . . أصبح يخيفني مع هذا المطر . . وهذا البرد الصقيعي الذي يقدد الأنوف . . والسل . . والروماتيزم . . والأمراض التي بدأ يتحدث عنها . . وإذا تفجر مرض السكر فيّ، تصبح العملية مكتملة الجوانب . . ونجلس في هذا الخلاء . . نترقب متى يطعننا الموت . . .

يتكيء علي . . نمشي بتثاقل . . جسده رصاص . .

— « إيه . . أخطأت ربّما ، حين خبأت مرضي لكني خدمت الرفاق بجدية ، ولم أخن . . »

— « ماذا تقول ياعليلو ؟ ؟ الرجل ، لاييأس بهذه السرعة . . »

— « الحقيقة ياعاشور تبقى هي الحقيقة ، حتى ولو لم نردنحن..أنا مريض ياعاشور وقد أسقط من حين لآخر.. أتعس شيء يقتلني هو هذه الأمطار الباردة . . إذا رأيت أن الأمر قد استفحل أكثر ، سأريك الطريق ، وعليك أتباعه ، وستصل . . وحين تصل عليك أن تقول لهم كل الحقيقة . . »

— « كلنا في نفس التهلكة تمسك بي أكثر . . »

ياالله ؟ ؟ أيسقط الرجال بهذه السهولة . . علي كان رجلا . . علي كان فوق كل تصوراتي الضعيفة . . إنه يتحمل معي الموت . . أنا معذور على كل حال ، حين اتهمته . . هذه الحياة ، علمتنا أن القضايا المبدئية ، فوق كل اعتبار . . .

ـ « أنا معك إلى أخر الخط ياعاشور . . سنحاول تجاوز هذا السل وهذه الأمراض . . »

ـ « سنصل ياعليلو . . بدأنا رحلة ، علينا أن نتممها. أو على الأقل نقاوم إلى أخر لحظة . . »

آه ياعاشور . . عليلو صار ثقيلاً كالحديد . . الإتكال عليه لم يعد كافياً . . الله غالب أفنى صحته من أجل الوصول ولكن . . عليك أنت ، ترتكز الأمور الآن . . أي تهاون بسيط . . أو يأس . . سيضع حداً لكل الأحلام . .

مع بعض . . كان العراء والوحل والمطر تنتهكنا بفظاعة . .

سحنة مأكولة من تعب المسافات . . فعل كل ما بوسعه . . كان هو الأقوى . بحكم موقعه . . المسؤولية علي الآن . . سأضاعف من الجهود أكثر ، فأكثر . . وإذا كان لابد أن نموت ، فلنمت واليد في اليد . . عليلو كان رجلاً . . القضية إذا سقطنا فوراءها رجال ، وأطفال مازالوا يتدلون في الأرحام في أيديهم زهور وخناجر

حادة . . مدببة . . مثل هذه الأمور ، موضوعة ، في الحسابات من زمن بعيد . .

قد نصل وقد لا نصل . .

قد نلثم أمواه البحر ، كما قد نبقى جثثاً في هذا الخلاء ، تأكلها الذئاب الجائعة . . آه . . أيها الزمن الأسود الذي يغرق أبناءه ، بدون سابق إنذار . .

الرعد . . البرق . . والذي زاد الماء في الزوادة هذه البرودة القاتلة ، وهذا الظلام . .

إيه ياعاشور . . البوصلة ضائعة والجروح كثيرة، والطرق مخيفة . .

رجلان في مواجهة البرية والعالم المصاب بسرطان الدم .

– « الهم هم . . هذه الأمطار ، منذ أكثر من ثلاث ساعات ، لم تتوقف بعد . . »

– « أي . . آخ . . رجلي ياعاشور . . رجلي تقادت . . »

ـ « شاء في بقوة . . »

ـ « كح . . كح . . آي . . صدري . . النار ياعاشور . . »

ـ « أين نحن الآن بالتقريب ؟ ؟ . . »

ـ « وسط غابة . . والبحر مايزال بعيداً . . »

ـ « . . . . »

ـ « سترحل ياعاشور في قوارب الصيادين . . ستنقلك إلى سفن أخرى ترحل بك إلى الحدود . . الأمور مدروسة بشكل جدي . . »

نزعت معطفي . . عصرته بقوة . . الأمطار مازالت تنهمر بقوة . .

ـ « خذ . . ضعه على ظهرك . . »

ـ « وأنت ؟ ؟ . . »

ـ « لاعليك . . »

ـ « آه ياعاشور . . لولا هذه الآلام ، ابنة العاهرة..

ربّما كنا الآن أقرب من البحر . . لكن . . بعضِ المرات تكون الظروف أقوى ؟ ؟ . . »

كح . . كح . . كح . .

سعل سعالاً حاداً . . أحسست ، بألم ، إن قطعة من لحم صدره احترقت حتى أصبحت رماداً . .

— « هذا النعل المطاطي لم يعد ينفع . . كح . . كح . . الرجل تمزقت ياعاشور . . »

— « مازلت كالسبع . . سنرتاح قليلاً . . وبعدها . . »

— « ياعاشور ، يجب أن نواصل ، أو على الأقل أن تواصل . . »

— « لحظة نسترد فيها أنفاسنا ، ونضمد جروحك ثم نواصل ونحاول أن نضاعف من سرعتنا . . »

— « المهم . . »

* * *

- ٦ -

الظلال المتمددة ،زادت الظلمة، قتامة . .

عند جذع شجرة ، كبيرة ، جلسنا . . أرتحنا قليلاً . . استعاد شيئاً من أنفاسه . . تقتل أمخاخنا ، رتابة الأمطار الثقيلة . . أجسادنا ترتعد . . كل شيء فينا ، يرتعد . . أخرجنا الزجاجة المتبقية من الرحلة . . التي صاحبتنا ، مع مجموعة أخرى من زجاجات الجعة ، من القبو ، ، حتى هذا المكان المرمي على الهوامش . .

— « زدْ . . أشرب ، ياعليلو . . زدّ جرعة أخرى..»

— « أشرب أنت . . . »

أعطاني ، فشربت بدوري . . أحسست بحرارة تصعد من أقدامي . . تسري في عروقي نشوة غريبة . . غريبة جداً . . بدا لي وقتها ، أن العالم جميل لكني رأيت مسوخاً سوداء عالقة به تارة . وتارة أخرى ، كان العالم في هيئة كلب أجرب مشوه السحنة . .

مزّقت الجزء الداخلي من معطفي الذي على ظهره .. حاولت أن أطويه وأعد له في شكل ضماد أضعه فوق الجرح . . بحثت عن قدمه . .

— « سيزول الألم ياعليلو . . »

— « بهذه الطريقة ، لست أدري . . كح . . كح.. هل نصل في الوقت المناسب ؟ »

بحثت عن علبة الكبريت في جيبي . . سأرتكب حماقة.. النار ممنوعة ، ويمكن أن يلقى علينا القبض بكل سهولة .. المهم (الضرورة ، تبيح المحظورة) ليس لدي الخيار .. في الحروب الفائتة ، من يرتكب مثل هذه الحماقات يجازي. وقد يصل الجزاء حد الإعدام . . أما والحالة هذه ، فلم يبق بيننا وبين الإعدام ، إلا أن يرفع السياف ، سيفه . ويهوي به على رقابنا الموضوعة فوق السندیانة . . . . آخ ياعاشور بخس . . ونحس . . ولا يساوي فلس . . حتى هذا العالم يشهر في أوجهنا قساوة الظروف . . هذه الظروف الملعونة . . علبة الكبريت ياعاشور . . لاتكن غبياً . . أمواه الأمطار الثقيلة . . تفسخت . . أتى عليها الماء والوحل الذي

الذي نفذ إلى الاجسام ، كيف لاينفذ إلى علبة كبريت هزيلة جداً . .

طوحتها في الهواء . . سمعت وقعها الصغير الذي أحدثته ، رغم تساقط الأمطار الذي كان يحدث أصواتاً رتيبة ، تدعو إلى الاعجاب حيناً،وحيناً إلى التقزز والنفور والإرتعاش . . آه او كنا في دارٍ ما . . مدثرين في فراش ساخن ، ونتأمل من النافذة ، بحب، سيول الأمطار وهي تجرف النباتات الصغيرة والعيدان ، وقذارات الأحياء الشعبية . . ومن حين لأخر ، أمدّ يدي إلى التنوّر . . أدفئها . . ثم أعيدها إلى الفراش . وأعاود معايشة لحظة الاكتشاف بكل عمق . .

عاشور . . بدأت تثبت فشلك . . أنت أمام واقع . . عليك أن تجابهه ، بضراوة ، وبعد . . وبعد حين ينتهي هم المسافات . إحلم . . إحلم . . حتى إذا مت ، وشرحوك . وجدوا غصة الحلم ، ماتزال عالقة بك . .

ـ « أين مصدر الألم بالضبط ياعليلو . . »

أخذ يدي . . زحلقها ، بأرتجاف فوق ساقيه ، حتى وصل قدمه اليمنى . . تحسست . . حفرة . .

— « أي . . هناك بالضبط . . »

إيه . . الحفرة . . هي نفسها . . تشبه الخاتم الأبدي الذي أحمله في أليتي . . الهبرة ، التي انتزعها مني كلب الجسطابو . .

« هذه المرة ، سنلتجيء إلى الوسائل الأكثر أناقة . . »

الليل كان . . والأمطار الغزيرة . . والأجساد الممزقة . .

ضمدت رجله بعد أن أفرغت فيها ، ماتبقى في الزجاجة من شراب . . أحس بألم ولكنه نهض . . حاول أن يمشي . . لم يستطع . . حاول مرة ثانية ، ثالثة . . رابعة . توصل إلى أن يستعمل قدمه اليمنى . .

— « يا . . كح . . كح . . عاشور . . الوقت يمر . . . »

— « هذه المرة ، نبدأ الرحلة بثبات وقوة . . »

— « أوف ، لا أتصور ياعاشور ، أني سأعطي أكثر مما أعطيت . . . »

ـ « عليلو . . إذا لم تستطع ، أنا مازالت لدي قوة ، وسنصل . . »

ـ « ياعاشور . . أنا مريض . . ومرضي استفحل . . الصدر . . الصدر ياعاشور لايرحم صاحبه . . فاذا كان لابد أن أنتهي كالشمعة ، وسط هذه الأمواه . . فليكن شرفي أن أموت واقفاً ، وأن تصل أنت إلى البحر . . واصل في نفس الخط ياعاشور . . أجر أكثر من أي زمن مضى . . ستواجهك أشجار القندول الصغيرة ونباتات « المارمان » . . غابة صغيرة . . وستجد وادياً بالطبع ، أمشِ على الضفاف . . واجر . . أجر إلى أن تحس أن الموت يقف في حلقك كالدركي . . لاتتوقف . . ستتعذب . فالمشي في القندول والسدرة والعريش أمر قاسٍ . . لكن أنا متأكد ، من أنك ستصل . . وإذا لم يكن التيار قوياً حاول أن تقطع الوادي . واختصر المسافة ، فقد ضيعنا من الوقت الكثير . لكن القضية ، ماتزال بين أيدينا . . وبعدها طبعاً سيقفز قرب عينيك البحر بكل عظمته . . وجماله . . »

ـ « ياعليلو ! ! ؟ ؟ »

الحقيقة ، أني كنت لاشعورياً أتتبع كلامه بكل انتباه ، ومع ذلك . . . »

— « عليلو . . يكفي من الهذيان . .

— « ياعاشور .. لماذا نكذب على أنفسنا . . أنا مسلول . . أبنائي أتى عليهم التيفوس والرطوبة واحداً، واحداً . . لم يبق لي شيء . . حتى زوجتي « ودعة » دفنتها السنة الماضية ، عندما عدت من العمل ، وجدتها زرقاء . . ماتت ولست أدري كيف . . تكهنت أن أفعى لسعتها . . أنها خنقت نفسها بيديها . . أنها . . وأنها . . دفنتها لوحدي ليلاً ،وكان الزمن ، زمن البرد والثلج . . وعدت إلى الدار . . لم يبق لي شيء ياعاشور. . والآن يمتد نفس الموت ليلحقني بهم . . لكن سأرفض .. سأرفض إلى يوم القيامة ، الموت بسهولة . . سأرفض ، وسأقاوم معك ياعاشور . . ولكن من يدري ؟ ؟ . . قد يفاجئني الموت ، في أية زاوية . . على فكرة نسيت .. كن على بال . . حين يواجهك البحر . . أحذر فهو عميق . . ستضطر لدخوله . . على بعد عدة أمتار . .

ستواجهك جزيرة صغيرة وسط البحر ، وهي عبارة عن صخرة واحدة . . حاول أن تصلها . . وهناك ترقب حتى ترى باخرة صيد . فلوح لها بخرقة حمراء . . ثم بيضاء . . سيسألونك عدة أسئلة . . أجب بصراحة . . لاتخش شيئاً . . كح . . كح . . كح . . هاهو ذات السعال عاد ياعاشور . . بدأت أحس أني أتقيأ الدم . . . »

— « في الورطة سواء ياعليلو الزلميط(١) . . . »

— « لم أبق « زلميطا » . . زماناً كنا . . لاأحد يستطيع أن يجابهني في الجري . . كنت كالبرق . . كالنار . . في سباق الأطفال كنت الأول دائماً . . الأوّل ياعاشور . . الزلميط لم يعد زلميطاً ، ولكنه أصبح صخرة . . صخرة جامدة . . . »

— « مازال الخير ياعليلو . . . »

— « آه . . أولاد القحاب . . سنعاود الهجمة وسنبولهم في سراويلهم . . . »

(١) الكبريت .

— « وستكون أنت ربها . . »

— « الزلميط ، يتركون له الضفدع الكبير فقط . . سأسلخه وآكله حيّاً . . فقد أمتهنت الجزارة سنوات ، وبعدها أفلست ، فالتحقت بمصنع ولد مرغريت ، اليهودية . . »

— « وهذا بدوره ، ياعليلو متوقف على مدى سرعتنا في الجري . . لأنه، قد تكون العملية عكسية ، في حالة ما إذا فشلنا . . . »

صمت لحظة . . يبدو أني صدمته ، بشيء كان يرفض سماعه ، في هذه اللحظة بالذات . . زحلق ذراعه، من على كتفي . . حاول أن يمشي بدون الارتكاز علي . . تألم . . تألم . . وبعدها ، أصبحت الأمور عادية . . أو على الأقل ، هكذا بدا لي . .

رجلان . . والليل ، والمطر ، وشراسة الخوف ، والحرس ، والقتلة . .

عاد الرعد يقصف من جديد ، كمدافع في آفاق بعيدة ، تستعد لهجمة موسعة . . لاجتياح . . وعادت الأمطار

بغزارتها ، وجلدها . . عاودنا الجري . . الغابة الصغيرة.. كنت أخشى تارة أن يفاجئني جسم من هذه الأجسام السوداء المنتصبة ، هنا وهناك، أوأن يدخل عود، في عيني. . فالعيدان المنتصبة في الطريق كثيرة . . فنسقط . . كتلتين من اللحم البشري . . حتى يلقى علينا القبض هنا . ندور في دوّامة العميان . .

أجر ياعاشور ، وأرغمه على الجري ، وإلا داسكما القطار الذي سيأتي . .

« أجر وقل ماجريت »

« اللي تلتفته اجريه . . . »

يسقط . . ينهض . . يسقط . . أمدّ يدي . . وبكل جرأة يعاود الجري . . علينا أن نقاوم . .

لم أستسلم للموت حتى في نهاياته القصوى . . المحتومة. . لكن روزا . . آه ياروزا . . كلماتذكرت أحسست بخنجر يتحرك داخل قلبي . . الموت كان أقوى منها . . ولو وجدت في نفس ظروفها . . كان وقع لي ماوقع لها ..

الماء يتسرب من كل الجهات . .

كحيوان طائش . . أبحث عن مخرج ، وأي مخرج.. مكتفياً بالضوء الميت الذي ينبعث ببخل من خوذتي . . أسير على حدس حيواني . . كل الانضباطات راحت مني . .

« حين يواجه المرء الموت . . يشوش العالم في عينيه . . »

كل الرفاق فقدناهم واحداً . . واحداً . .

حين عدت لها . . وفي لحظة أحسست ، كل ردم العالم تسقط على رأسي . . كانت تصرخ صراخاتها الأخيرة قبل أن تنام بهدوء ، وتغلق أكوام التربة السوداء ، فمها.. بقيت وسط الجثث ، والأصوات الغامضة . . لاأعرف الزمن . . كنت أعيش على هوامش اللا زمن . . أتخبط داخل « لابيرانث » . . ذبابة تحوم بلا رجاء . . افتقدت كل سبل النجاة والخروج من هذه المزبلة . .

فاجأني مخرج صغير يؤدّي إلى الدرج الثاني . . كان الماء ينحدر منه بكثافة . . هذا هو حظي الوحيد للخروج من هذا المأزق . . فاذا استطعت أن الحق الخشبة سأتدحرج منها إلى القضيب الحديدي ، فأتسلقه ، وأصل . . سأصل..

إيه . . حين كنا أطفالاً صغاراً . . صنعنا السجاير من روث الأبقار والحمير ، ودفناها في صدورنا الصغيرة.. كان تبغاً شيقاً . . وتسلقنا الأشجار كالقردة . . أشجاراً أكثر من هذه الخشبة . .

فليكن ، فهذه الخشبة ، وهذا القضيب الحديدي ، هما حلي الوحيد . .

الرجل اليمنى على الصخرة . . واليسرى فوق كومة التراب . . واليدان تقبضان عليها . . جرب حظك الآن ياعاشور . . ليس لديك الخيار . . وحق النور الذي سيأتي.. ليس لديك الخيار . . الرجل حافية . . تحاول . . تنزلق ، يرتطم رأسك بجسم ما . . تعاود . . تسقط على فمك.. آه . . هذه المرة نجحت تقريباً . . تنزلق من تحت أقدامك الصخور التي كنت ترتكز عليها . . تبقى معلقاً في الهواء ، بين الكوة الصغيرة والأرض ذات الصخور المنتصبة . . إذا سقطت ياعاشور ، ستتحطم كالدمية .. تحتك التراب الأسود وعظام روزا والرفاق ، وأجسام أخرى سحبها الماء إلى هنا . .

الكوة . . حلمك . . صعب . . ولكن في النهاية، ستصله . .

حاول ياعاشور . . تحرك . . تشجع . .

كنت معلقاً . . رجلاي ترقصان عبثاً في الفراغ . . كالذي يتعلق بقشة للخروج من الموت ، غرقاً . . أحسست بنوع من الوهن في ساعدي . . في تلك اللحظة ، كان الموت بكل أسلحته القاتلة يداهمني بشراسة . . لعنت « فرساي » بكل رجالاتها ، الذين كانوا على رأس كل هذه المهازل . . لعنت كل مناجم العالم ، وباريس التي تتبرج بدماء العمال ، وعظام الذين سقطوا بضربات ، من الخلف . .

آه ياعاشور . . تصور . . لو كانت الكومونة التي أجهضوها . . لوفرت لك . . لهم جميعاً الأمن . . الحياة . . أو على الأقل لاتموت هذه الميتة المكشوفة . . مازلت أرقص ، طائراً ذبح بمدية شحذت على رقبة عامل سقط ، ورغوَة الحب مازالت تفيض من فمه . . في قلبي توترات حادة ، وذعر قبلي مصدره الخوف من

الموت . . لو تنزلق يدي . سأنتهي نهاية بئيسة . . لا . . لا . .
لن انتهي بهذه السرعة . . لن أنتهي قبل الثأر لكل روزات العالم . . لصغيري الذي تركته وسط ، وحشية الأحراش . .
لهذه العيون البريئة ، التي طعنها الموت على حين غرة . .
للرجال الرائعين الذين ماتوا بصمت ولم نعرفهم ولم يعرفونا . .
كتبوا التاريخ . . وسقطوا وهم يدونوك شهادة صادقة لإدانة هذا العالم المتفسخ بالجوع . .

أحسست أن الموت يقف في حلقي ، كالعلقة . .
كالمدية . . وبصعوبة قاسية وصلت القضيب الحديدي . .
قطعت نصف المسافة إذن ؟ ؟ الكوة ماتزال بعيدة إلى حد ما . . علي أن أتدحرج إلى الخشبة الثانية وبعدها ، إذا نجت أكون ، قد وصلت أو العكس انتبهت إلى تحت . . عالم مغلق . . وأنا كعصفور مضروب على الرأس بالبارود . . مازال يقاوم الموت . . وبشجاعة ، لاتخلو من المغامرة ، وصلتها . . لمستها . . كانت لزجة . . طويلة ، تضرب في عمق الأرض وتعلو ، تعلو ، حتى تخرج من المنجم . . ياالله . . عالم مخيف من الجثث ، وبقايا الصراخات ، كان تحتي . . ولا أعلم حتى الآن ،

كم مرّ علي من الوقت مرّة أخرى ، حاولت أن أكتشف العالم « اللي تحت » . . كان الظلام كثيفاً . . لم أرَ شيئاً غير أني سمعت خرير المياه ، الذي كان ينبعث من كل بؤرة ، داخل هذا المنجم . .

البرودة تغوص في ظهري كالإبر المسمومة . .

إيه . . لحظة الموت ، يكثر الهذيان ، ويطعن المرءَ سؤال أبدي ، يتكرر دائماً

« ترى ماذا قدمت حتى الآن ؟ ؟ . . »

حاول ياعاشور . . حاول ، ولد امرأة ، ورجل ، لا يموت بهذه السهولة . . لكل معضلة حل اللهم إذا طرحت خطأ ، فيكون الحل طبعاً ، خطأ . .

ثبت رجلي جيداً بين الحائط والخشبة الطويلة . . مسحت يدي على بزتي المتسخة ، شنشنت نقود ، كانت في جيبي . . فجأة تذكرت المسامير والأشياء الأخرى . التي أحملها معي ، في الجيب الكبير من البزّة . . هذا هو الحل الوحيد . . فالخشبة ، لزجة ، ولا يمكن أن أصل الدرج الثاني ، بدون السقوط . . متسلق جبال . . ليس

أمر من هذا،وأخطر منه ، إذن فليكن . . نزعت الحزام، أحطته بجذعي ، وبالخشبة . غرزت مسمارين كبيرين، ثم اللعبة الخطرة . . أتسلق . . أدفن مسماراً آخر . . أضع قدمي فوقه . . اتحقق من صلابته ، وأعاود الكرة . .

« لأصل الدرج الثاني على الأقل ، وبعدها نرى ! !؟؟»

من يدري ؟ ؟ قد يوجد الآن غريق مثلي . . هناك، وفي نفس الموقف . . يحاول بدوره أن يصل الدرج الثالث ، والرابع ، بعد أن مرّ على كل هذه المراحل القاسية. . سنضع يداً،بيد ، ونقسم يمين العمال . . ونحاول معاً ، قطع هذه المسافات المميتة ، للوصول إلى كوة الضوء الصغيرة . . وإذا كان في عالم « اللي تحت » من لا زال حياً ، سيجدني ، قد عبدت له الطريق . . وسيصل لا محالة.. سيسمح له ذلك ، بعدم ، هدر طاقته ، في البحث عن المسامير ، وغرسها على الخشبة . .

« إذا لم أصل أنا . . سيصل هو . . »

* * *

- ٧ -

- « عاشور . . أحس أني أبصق الدم . . قلبي في فمي . . كتلة سوداء ، مالحة ، نتنة . . كح . . كح . . انتهى ياعاشور . . انتهى كل شيء معي . . أجر . . إذا بقينا على هذه الحال فان نصل . . أموت أنا ، ويقتلونك أنت . . ستمزقك الكلاب . . أنت تعرفهم ، عندما يتعب عقلهم ، ماذا يفعلون . . يرتكبون كل الحماقات، التي يدونها ، التاريخ عنهم ، ويحكمون بها على أنفسهم بالإعدام . . . »

- « كل الأمور ، متوقفة على جرينا ، ياولد البلاد..»

ماذا تقول ياعاشور ؟ ؟ ماذا ؟ ؟ . . احذر . . عليلو أصبح ثقيلاً ككتلة رصاص أو قطعة حديد قديمة . . يريدك أن تتركه ، وسط هذا العالم الموحش . . أنت لاتستطيع أن تفعل هذا أبداً . . إذا كان لابد من الموت ، فلنمت جنباً إلى جنب ، ونحن ندافع عن الحقيقة - القضية . .

— « عليلو . . قاوم . . القوة موجودة حين نشاء . . »

الليل . . والطريق صعب . . وشجيرات القندول والوحل . . والموت المتمترس في الطرقات . . يرتعد في يدي بشكل مخيف . . تخيلت أشياء زرقاء ، وحمراء تلتصق بحنجرتِه ، وتعيقه عن التنفس . . حركة صدره تضاعفت ، على غير العادة . . لعله ينزف من الداخل. ياالله . . أصبحت أخاف ، خوفاً ، لم يساورني حتى لحظات مواجهة الموت الأحمر . . هي ارتعاشة الموت ياعاشور . . تفاجىء ولا تنذر . . تبدأ من الصدر ، لتشل كامل الحركة . .

« هذا البرد يجمد حتى الحديد »

سقط من جديد . . حاول أن ينهض . . لم يستطع . .

— « يدك ياعاشور . . يدك . . علينا أن نصل في الوقت . . »

— « بسرعة ياعليلو . . بسرعة . . لاتحمل هماً. سنصل إن آجلاً أو عاجلاً . . »

ـ « لا . . لا ياعاشور . . علينا أن نصل عاجلاً . . آه يارفاقي . . ربّما أنتم الآن كذلك تعانون سكرة الموت، في زاوية ، من زوايا هذا العالم المغطى بالجلود النتنة . . سامحوني . . هذا كل ماستطعت تقديمه . . »

مرة أخرى يتقيأ . . كان يقذف أشياء ، هو وحده ، يعرف لونها وآلامها . . صاحب ذلك سعال حاد، لم يتوقف إلاّ بعد أن خرم صدره . .

ـ « كح . . كح . . اسمحوا لي . . هذه هي طاقتي . . لاأستطيع أن أعطي أكثر من هذا . . »

إيه . . أيها الزمن الأسود ، المتبرج ، ببقايا جسم أحرقته المناجم ، وهموم المشاكل اليومية . . عليلو دخل مرحلة مخيفة . . الآن تيقنت ، أنّ الرحلة ، تبدأ من هنا . . من هذه النقطة التي نقفُ عندها ، بالضبط . .

حينما نقف وجهاً لوجه ، مع الموت ، تستيقظ كل الأشياء المخيفة ، ويمر العالم بسرعة البرق . .

نهض . . مسحت فمه بيدي . . تصاعدت إلى أنفي رائحة الدم ممزوجة، بالملح وروائح التربة . . وضعته

على ركبتي . . حاو أن أقلتيه بظهري من المطار . . في تلك اللحظة بالذات ، تمنيت بدون تحفظ أن تهاجمنا « رعدية » تأتي علينا ، وعلى هذا العالم المتوحش . . أن تسقط فوقنا كلاب الحطابو وتقددنا أطرافاً ، أطرافاً.. ولتنته هذه الحكاية إلى الأبد . . لكن شيئاً ما في أعماقي، لم يتوضح ، جعلني ألغي هذه التصورات من مخيلتي ، وأواجه هذا العالم بصرامة . .

— « آه ياعاشور . . لاترغمني على المشي . . فأنا انتهيت . . . »

— « لاأقبل منك هذا ؟ ؟ . . . »

أقبل أولا تقبل ياعاشور . . فأنت تعرف الحقيقة، أكثر من غيرك ، عليلو حالته خطيرة ، وأي مشي ، أو جري ، معناه نهايته . . بل تقريب هذه النهاية الحتمية . .

— « اسمحوا لي يارفاقي ، إن أنا لم أستطع إتمام هذه المهنة . . . »

— « لا ياعليلو . . سنرتاح قليلاً ونواصل الرحلة.. وتخلق مع كل الذين ماتوا والآتين ، العالم الجديد . . . »

ـ « آه ياعاشور . . كان بودي أن تعرف عني الكثير . . لكن . . إيه إنها الأوامر . . »

ـ « الآن ليس مهماً . . سيأتي زمن ، ونتكلم بقلب مفتوح . . »

« آي . . آخ . هذا الداء موحش بشكل مخيف . . »

ـ « رجلك ، مازالت تؤلمك ياعليلو ؟ ؟ ؟ . . »

ـ « قلبي ياعاشور . . صابري ، يرحل من مكانه . . »

ـ « سنواصل ، ونحاول أن لانجري كثيراً . . »

ـ « حتى الرفاق ياعاشور ، لم أطلعهم على مرضي . . »

ـ « ربّما كان هذا هو خطؤك . . »

ـ « مارأيك ياعليلو لو نستأنف الرحلة ، الآن . . »

ـ « آه . . اسمحوا لي أيها الناس . . يامن أعرف ، ومن لاأعرف . . بذلت قصارى جهدي وكانت هنا نهايتي . . أنا لاأستطيع تقديم ، أكثر مما قدمت . . سيأتي من يتمم بعدي لامحالة . . ستجد ذات يوم ياعاشور من

يداك على زرقة البحر ، من يداك ، على جمال هذا العالم ، الذي حين يستيقظ ذات فجر ، سيدرك كم كان غبياً حين هوى على علي الوافي بمدية الموت وسط هذا العراء.. نحن جيل ياعاشور . . نخلق من الأرحام المجروحة ونعود بسرعة . . تبتلعنا خاشوش الأرض بنهم . . أتدري ياعاشور بأني لست خائفاً الآن . . كنت أخشى أن أموت موتاً رخيصاً . . ولكن العكس هو الذي يحدث الآن . .

— « الرجال الحقيقيون ياعليلو ، فوق الموت . . »

— « تصور ياعاشور ، أنني لو أبعث ثانية ، سأكرر نفس العمل ، مع هؤلاء الأوغاد ، الذين يجرون وراءهم الجيل الجديد من كلاب « الجسطابو » . . نهض . . أتكأ على كتفي . . وضعت يدي على معصمه الأيسر . . غريب دقات قلبه تضاءلت . . الأمطار ، ماتزال خيطاً من السماء.. لن يموت ، سأمنعه من ذالك ، حتى ولو أراده . . سأمنعه ، باسم أبنائه الذين قتلتهم أمراض السل والتيفوس . و .. باسم زوجته التي وجدها زرقاء . ملوية في فراش أجرب ، جثة هامدة . . باسم الناس ، الذين يسقط من أجلهم الآن..

لا . . لا ياعليلو . . لن تموت بهذه السهولة . . إذا نجحنا ذات يوم . . وسننجح بدون شك ، وعانقنا الطفلة الحافية ، القادمة من النجمة القطبية ، ستكون ، أنت ياعليلو ، أول من يطبع على جبينها قبلة . . ياعلي . . الرجال الحقيقيون لايموتون . . فهم فوق انتهاكات الموت . . أنا في حاجة إليك . . هم . . كلهم في حاجة إليك . . هذه هي اللحظة الحرجة ياعليلو . . هذه هي البداية . .

عليلو ، أنت تعرف المنطقة ، ربما بحاستك السادسة ، أو السابعة . . ربّما كنت راعياً ، أكلت هذه الفيافي ، منذ زمن صحتك . . ربّما ، كانت عيون ما ، تنهش لحمك ذات يوم في هذا المكان ، لأنك عرفت سرّ الحقيقة المطلقة ، قبل أن تلج قدور جهنم . وتصبح أكثر وعياً ، وأكثر تضحية ، وأكثر إقداماً . أنت الآن كل هذه الأمور . . وأكثر منها . . فالرجال الحقيقيون هم كذلك يحبون الحياة . . وإذا فعلوها ، وسقطوا قبل مطلع الفجر ، فمن أجل أن تثقب المرأة الحافية ، القادمة من عمق النجم الفضي ، هذه الأرض الصلبة . . وترقص

رقصتها الأبدية حتى يتفجر الحليب وتونع الزهور وتصبح التربة السوداء ، قطعة خبز كبيرة . .

« ياعليلو . . باسم رفاقك الذين أكلتهم المجازر البشرية ، مازلنا في حاجة إليك »

— « كح . . كح . . النار ياعاشور . . النار تأكل صدري . . »

كالميتين . كنا نمشي . .

حاولت أن أسنده أكثر على صدري . . مرتخياً كان كقطعة قماش . . كل حرارة الرحلة تحولت الى كتلة جامدة تشده إلى الأرض من قدميه . . هل يقبل هذا العالم المتوحش أن ننزع منه رئته ونرميه ، في الفراغ وسط برية متوحشة ، ونقول له عش . . فقد وهبنا لك الحياة . .

— « اسمحوا لي أيها الرفاق . . فشراسة العالم كانت أكبر مني . . »

— « لاياعليلو . . قد نضيع قليلاً من الوقت . . لكننا سنصل لامحالة . . »

ـ « لاياعليلو . . الصياد يعرف أنه سينتهي في البحر ، ومع ذلك فهو مبسوط لهذه النهاية . . ونحن نعرف هذه الأمور ، ولا نرفضها . . »

حالته ، كانت سيئة للغاية . . تخيلته في تلك اللحظة ، المشحونة ، بتوترات الموت الأخيرة ، أزرق من هذه البرودة ، التي تنفذ إلى الجسم بقساوة كالحربة . . أحسست بأظافره . تنغرس في جسمي على أطراف ثيابي الممزقة ، عصرتها قبل لحظات من الأمواه التي أثقلتها . . نزعت من فوقه ، المعطف . . عصرته مرة أخرى . . وضعته على ظهره أحطته من تحت إبطه . . وحاولنا أن نتحرك من جديد . .

كنت أشعر بالموت ، شاهراً سيفه ، واقفاً ، عند بوابات حنجرته المسدودة بدم أسود قطران ، ويترقب اللحظة المناسبة ليحسم الأمر نهائياً . .

آخ . . لولا هذا المطر ، ابن العاهرة ، كانت المسألة ، طرحت بشكل آخر . . .

بصراحة . . بدأ اليأس يحتل البؤر الحاوية في جسدي . .

— « ياعاشور . . هل كان من الضروري ، أن تتعذب ، كل هذا العذاب من أجلي . . » .

— « أوف ياعليلو ، نحن لم نفعل شيئاً من أجلها حتى الآن ، ولا من أجل أنفسنا . . » .

— « اسمحوا لي . . كح . . كح . . كح . . كح . . »

يسقط في مدّ لامتناه . . غرق في سعال عنيف . . أحسست بأسود عينيه يصبح كله ، خرقة بيضاء . . ضربت ضربت على ظهره . . نشب أظافره في صدري كطفل يحاولون عبثاً ، عزله عن أمه . . مرة أخرى ضربته على ظهره ، عبثاً . . موجة من السعال . . امتدت . . . امتدت . . ومعها تمدد الخوف في جسدي شبحاً مخيفاً . . فجأة سكن كل شيء . . أحست بيديه ، ترتخيان . . بأظافره تنزلق فوق قميصي اللزج . . بجسده يتحول إلى كتلة ثقيلة . . ثقيلة جداً . . اجتاحتني موجة خوف أواجهها للمرة الأولى بدمعة تدحرجت رغم أنفي . . تصورت نفسي أحضن بين معصتمي كتلة بشرية لاأثر للحركة فيها . . .

« علي . . علي . . علي . . »

تزحلق من يدي . . ارتطم على الأرض . مكوناً صليباً كبيراً . . حاولت أن أضع رأسه فوق ركبتي . . تلمست معصمه الأيسر . . ساكناً كان . . هادئاً . .

صمت لحظة . . أحسست بالعالم يمشي على رأسه .. الضربة كانت قاسية . .

عليلو يسقط في الخلاء ضحية هذا الزمن الارعن . .

الأمطار ثقيلة ماتزال . .

— « ياعليلو . . آه ياعليلو خويا . . ماكنت أظن أنك ستفعلها في هذا الخلاء . . »

لاشيء يزعج راحتنا ، غير نقرات الأمطار ، التي كانت تتساقط بسرعة غريبة . . وخرير ماء الوادي العريض الذي فاجأني . .

هو الوادي ياعاشور ، الذي تحدث عنه . . ومن هنا تبدأ الرحلة القاسية التي تنتهي ولا تنتهي . .

حين انتابته نوبة السعال ، القاتلة ، التي سدت حلقه، نهائياً . . احسست أن دماءه ودموعه ، كانت تريد أن تخرج دفعة واحدة ، لتخلف وراءها فيضاناً رهيباً ، يأخذ في أثره هذه الكتل البشرية المتفسخة ، ويعيد عظام روزا والإفريقي وماريا والرفاق الأخرين إلى سطح الماء.. شعرت به كالطعنة المفرحة . . يعانق أنينهم بقلب أخضر، لايعرف الحزن إلا حين تكون الأعمال والأحلام مبتورة ..

هو ذا يسقط بكل إباء ورجولة ، ولا ينتهي . .

تيقن ، من أن الموت سيفاجئه في أي لحظة مات واقفاً..

« الصياد يعرف أنه سينتهي في البحر ، ومع ذلك ، فهو مبسوط . . »

ياعليلو . . كل ماأتمناه هو أن تعذرني . . فأنا لم يكن بمقدوري أن أخرجك . من دائرة موت شرس بدأ ينهكك منذ أزمان بعيدة . . اعذرني فقد شككت فيك.. اتهمتك ، فكنت ببساطتك ، عظيماً ، فوق كل الاتهامات..

هكذا ياعليلو . . نسقط من الأرحام بجرح في القلب لتأكلنا وحشية العراء بضراوة نسقط . . لكن الآتين ،

مع حمرة الفجر ، لن يتركوها تمر عليهم بسهولة . . تأكد من هذا ياعليلو . . وقل ، يوم الحشر ، بأني أنا الذي زعم هذا أمام جثتك التي تلفحها الآن الأمطار، والأرياح الباردة . . دمك . . دمهم . . مازال يجري في عروقنا كالرغبة ياعليلو . . فأنتم من جيل يموت ولا ينتهي . .

سنعبد هذا الطريق بالأشلاء والعرق الإسفلتي ، والعظام . . وإذا استوجب ، وكان ضروريا أن نسقط في العراء . . فمرحباً بالسقوط في العراء . وإذا كنا ، قد أخطأنا، مثلما يخطىء جميع بني آدم . . فهذا سيقي القادمين من جراب الدم والأنين والسقوط . ويختصر عليهم المسافات.. روزا كانت تقول بأن الكومونة موروثنا العظيم . . وضعت كل الأفكار النظرية على المحك ، ومن ثم كان لابد لها، أن تخطىء . . فانطفأت ، ولم تحقق الحلم الكبير الذي أخذ « إتيان» وكاترين » والآخرين . . الإفريقي . . الطفلة الآسيوية . . ماريا .. روزا . . واليوم علي . . عليلو الزلميط ، الذي كان برقاً في السباق . . لكن ثورة ١٧

الاشتراكية ، كانت قمة الحلم . . كانت هي الكومونة التي سقط من أجلها جميع الذين تصفر أرياح الجوع في بطونهم . . هذا هو التواصل التاريخي . . لاتخشى شيئا ياعليلو . . التاريخ معنا . . ومن كان معه هذا السلاح الأبدي، الذي لاينفد . . فسيسقط الحلم بين كفيه . حمامة ذات أجنحة بيضاء، بيضاء، وعيون صغيرة ، حالمة بغد سيأتي مع نزول أول راية، في أول مدينة تبارك لحظة الولادة . .

يمكن أن أصل ، كما يمكن ألا أصل . . لكن الأكيد. في حالة فشلي . . سأبذل جهداً آخر ، وأعاود الكرة ، إلى أن أصل ، وليكن مايكون . . مع ذلك ، مازال شيء أسود يأكل قلبي . . ينهشني من الداخل . . هو الزمن ياعليلو . . هو الفشل المخيف أمام وضع جديد . . أأتركك وأسافر ، تأكلك الذئاب ، وتتعلم في عظامك ، الكلاب الصغيرة، طريقةالنهش.. بودّي ياعليلو . أن أحملك على ظهري وأسافر بك سفراً أبدياً، لاينتهي .. أقطع وأنت على ظهري، كل حدود وجمارك العالم ، وأدين بجثتك هذه ، التي

مازال الدم يسري في عروقها ، هذا العالم الرث المتوحش الذي لايستحق أبداً أن يكون على وجه هذه الأرض ، بهذه الصورة . . ياعليلو . . وحق الله . . ليس لدي الأختيار أبداً . . اختياري ألا أختار . . في هذه اللحظة لاأستطيع أن أفعل شيئاً مهماً من أجلك . . إذا حملتك على ظهري نضيع ويضيع غيرنا . . وإذا تركتك هكذا ، تحت هذا المطر القاتل . . عندما يجفّ كبد السماء التي تمطر بغير وقت . ستجدك الذئاب طعماً رخيصاً . . صدق ياعليلو ، أنه ، ليس لدي الخيار غير الإلقاء بك في الوادي ، واعذرني يارفيقي . . ولنعانق عظام روزا والإفريقي ، والطفلة الأسيوية . . ماريا ، والآخرين الذين أكلتهم مياه المنجم السوداء وتدحْرجت عظامهم في كل الوديان ، الذين سقطوا من الأرحام ، في العراء بدون قابلة . وتكون وقتها محظوظاً . . وإذا صادف والتقينا ذات يوم ، في وجه صبية ستأتي من النجم القطبي ، الفضي . . سأعانقك ، وأعانقهم جميعاً . . أصافحك بحرارة ، وأحكي لك ما فاتك من حكايات وقصص البطولة . وإن كنت أدرك مسبقاً بأن عيونك لاتغفو لحظة واحدة . . ليس لدي الخيار . . هاهو ذا الوادي بقوته

الهادرة . . بغضبه . . ينتزع في رحلته ، كل الأعشاب الرثة . . كل الأخشاب الميتة التي لم تعد لها فائدة . . يقلب عمق الأعماق ، ليخرْجه إلى السطح . . يخرج كل العظام ، التي تنام فيه ، منذ بدء التاريخ . . سافر ياعليلو ، مع هذه المواكب غير المزيفة ، قد يوصلك التيار ، إذا بقي بهذه القوة الهادرة ، عند ثغور البحر ، وستطفو بكل عظمة فوق السطح .. وسأقترح على البحارة بأن نحملك معنا في الرحلة . . هم أصدقاؤك . . كرماء بشكل مثير للدهشة.. يعرفون أنهم سيموتون ولا يخافون الموت . . ونسافر معاً إلى الأراضي البعيدة التي تلد الحب والدفء والخبز لكل فم . . أو يجدك حوات ، ذات صباح فوق البحر ،.. يأخذك معه . . ينفخ فيك الروح . . ويعيدك إلى مكانك ، لتواصل الرحلة ، وتنهيها ، كما كنت تتمنى ذلك من قلبك . .

« آه ياعليلو لو تدري . . وحق الله ليس لدي خيار غير هذا . . »

كان لدي صديق . . رفيق ، بنفس الاسم ، ونفس

المهنة . . متنا جميعاً . . وكان موتي أخف من موته .. كل ماستطعت أن أفعله من أجله ، هو أني جمعت مخه المتشتت ، فوق أرضية المصنع ، ولملمت ، مع العمال الآخرين ، أعضاءه المطحونة . . ودفناه بصمت . . هو كذلك كانت له زوجة . . زوجة طيبة جداً ، مثل زوجتك . . سدّوا رحمها ببنادقهم ، فأنجبت طفلها من جرح في بطنها . . كان وضعي أتعس من وضعها . . فلم أستطع فعل أي شيء من أجلها ، أو من أجلي . . فأجهضت من الجرح بدون قابلة ، ونزفت حتّى يبست وفي يدها مذراة دافعت بها عن نفسها حتّى آخر قطرة . .

إيه ياعليلو خويا . .

« أنا صابر عاللي مشاوْا »

أنا صابر . . . »

نموت كالنمل ياعليلو . . نموت وندين، هندام هذه الحياة ، ونبحث دائماً وأبداً ، في رحلتنا القاسية ، عن لحظة جمالها يثير الدهشة ، داخل هذه الأعماق اليائسة .. عن لحظة خضراء . . كحد السيف لاتباع ولا تشترى ..

« رجل في مواجهة عالم شرس . . اعذرني ياعليلو ليس لدي الاختيار . . »

* * *

مفاهيم الزمن الموضوعية ضاعت . . كل ماأعرفه حتى الآن هو أن الظلمة ماتزال ضاربة . وأن المطر توقف قبل لحظات . . وأما تباشير الفجر فيبدو أنها ماتزال بعيدة . .

عاصفة الوديان هدأت . .

كل شيء يدعو إلى الجلوس على الضفة . وإلقاء القبض على لحظة رومانسية في حالة توترها . .

كه . . كه . . هذا (اللي بقى ياعاشور . . الشقاء . .) والزلط . . والموت الأحمر . . والبرد النافذ كالسوس.. والفانتزيا . . والبحث عن اللحظة الرومانسية . .

« إيه مت واقفا ، ياعليلو ، وتلك قمة الاستشهاد..»

عاشور . . ياعاشور الماندرينا ، ولد أحمد البرادعي ، وحلّومة ، بنت الزكري . . عليك الآن أن تواجه العالم بكل ضراوة . . ليس لديك الخيار . . أجر أكثر من أي

زمن مضى ، وإلا وقعت في الفم الوحشي ، المفتوح عن آخره . . أجر ،فالغيلان ذات الأنياب الحجرية ، تترقب لحظات الهزيمة لتنقض، بدون رحمة، لتمزق . .

إيه ،في تلك اللحظة ،التي تحرق فيها أشياءكثيرة داخل الإنسان . . نسيت كل شيء . . مرضي الذي عاودني.. أتعابي الثقيلة . . لذعة الجروح . . مرض السكر والروماتيزم المزمنين . . آلام الحروب الفائتة التي خرجت منها معطوباً، أحمل الضماد على كل قطعة من جسدي . . أجر ورائي آلام المناجم التي قذفتني مهزوماً مهووساً . .

حتى روزا الضلع المكسور . . في تلك اللحظة التي لايمكن ضبطها . . لحظة الجري ، والبحث عن الاتجاهات الصحيحة . . تنازلت عن ذاكرتي ، ولم أحاول قط حصر امتداداتها . .

فجأة ، أحسست ، بنقطة دم دافئة تدغدغ جسدي من الداخل . . سقطت فوق الكبد بالضبط . . أحسست بذلك . .

عليلو . . الله يرحم الشهداء . . هو ذا يعاودني ،

وجهه مشحون بطاقة لاحصر لها من الدمار والهدوء . . لست أدري حتى الآن أين وصلت جثته ، وإين ساقتها الوديان التي احتضنتها بدون بخل . . قد تكون، في اللحظة هذه ، تعانق ثغور البحر . . من يدري ؟ ؟ بعض المرات ، الظروف تسقط الكثير من الحسابات ، لكنها لاتمس اللب ، لأنه، فوق طاقة الظروف . .

الحقيقة ، أكذب ، إذا قلت بهدوء ، أن الموت ليس صعباً . . فافتقاد عزيز ، في هذه الظروف القاحلة ، هو ضربة خنجر قاتلة في جزء حساس من الجسم . . الإنسان مهما كانت طاقة صبره . . فهو ابن آدم على كل حال .. جميل جداً ، أن نسقط ، ونعمد بأمواه الأمطار . . وأجمل من هذا كله ، أن تغسل هذه الجراح، من الأدران العالقة بها ، ثم الموت وقوفاً ، وبشرف . . أن نموت ، ونحن في حركة دائمة ، ذلك أقصى مايمكن أن يقدم للرجال الحقيقيين . .

أجر ياوليد البلاد . . وراءك غول ذو سبعة رؤوس.. كل أفواهها ، مفتوحة ، تترقب الغادي والرائح لتلتهمهم

دفعة واحدة . . وراءك الكلاب .. كلاب صيد الكلمات، وصيد الرجال . .

« موسمبي » حين قبضوا عليه . . كانت اللعبة مدروسة من الأساس،أغروه ، فسقط شهية الإغراء . . كان بطلاً شعبياً قلبه ينبض بآلام شعبه . . مات في حركته ، ولم يفاجأ داخل قبو مظلم . .

« إمليانو زباطا » . . خانته البورجوازية الصغيرة.. باعته للاقطاع . . ومع ذلك سقط ، سقوط الرجال . . مات واقفا رغم آلاف الكتل الحديدية ، الصغيرة التي سكنت جسده . .

« كه . . كه . . موسمبي هرب . . »

« موسمبي يريد أن ينجو برأسه . . »

هو الخطأ عينه . . موسمبي كان قمة الرجولة . . أعطوْا للمسألة الكبرى . . للقضية الحقيقية التي ناضل من أجلها ، وجهاً ذاتياً صرفاً . . إيه ياعاشور. . هؤلاء الناس، قادرون على فعل أي شيء في سبيل بقائهم على أسرتهم القديمة . . باستطاعتهم أن يمسخوك قردا . . مجرد قرد

أكلته الأدغال الإفريقية من أجل موزة ضائعة كان يبحث عنها ليسدرمقه . . لكن ياعاشور . . ياعليلو . . هناك شيئاً اسمه الحقيقة . . الحقيقة التي تقف شامخة فوق كل عفن الكذب والتزييف . .

لعبة سقط فيها « موسمبي » . . سهلوا له مهمة الهروب ليضعوا بعدها في صدره، رصاصة مسمومة. .

وهرب . . فسقط ضحية الحكاية ، التي كانوا، هم وحدهم يعرفون نهايتها . . لم يمت موتاً رخيصاً .. رغم أخطائه كان رجلاً . . عكس الذين ينظرون من وراء المكاتب . . أجسادهم تتفسخ مع المدة . . تحتلها، بؤر صغيرة، يملؤها الدود القزحي، حين يجتاحهم الإفلاس، ويعلنون عن هزيمتهم ، وضعفهم . .

موسمبي . . حي لم يمت . .

عليلو سيعودُ قبل الفجر ، لحضور حفلة التعميد بالدم . .

زباطا المكسيكي . . قمة الرجولة ، فوق قساوة النهايات . .

مجرد سفرة صغيرة ثم يعيدونه إلى الأبد . .

ونعاود الكرة جميعاً .. وستكون النهايات قاسية . .

عليلو الزلميط . . ياالله ، مقتنعون بكل هذا ، ومع ذلك نبكي كالأطفال . . وما أصعب أن يبكي الرجال في الخلاء ووحشية الفيافي . . والبرد . . والجوع ، والموت ، الذي يتربص بنا في كل الزوايا . . هو الإنسان ياعاشور في لحظة قوته ، وفي قمة ضعفه . .

« « أعطِ رجليك للريح »

أجر ياعاشور . . أجر . . التعب . . الموت . . المرض.. لاشيء يهم . . حلم عليلو الزلميط فيك،أن تصل ، أن تصل في الوقت المناسب مهما كان الأمر ، وقبل غيرك..

في هذه اللحظة المزكومة ، بأفراح ولادة انقلبت إلى مأتم . . يخشى المرء شيئا واحداً ، أن تفاجئه رصاصة طائشة . . تثقب بسرعة برقية ، دماغه الذي يحمل ذكريات كل الرجال . . .

أجر ياعاشور ، و قل ماجريت . . ياالله . . حميميد.. الوجه الضعيف . . والحزن الموحش . . لماذا ياحميميد..

يانطفة قتلت في الرحم . . لا . أنت ابن امرأة ورجل .. حزنك على عليلو . . عليلو الزلميط الذي يجري بسرعة البرق . . حزنك لامبرر له . . البكاء ليس سهلاً ياحميميد . ادّخر كل شيء . . فالعودة على الأبواب . . احتفظ بدمعك ، وفرحك ليوم سيأتي لامحالة . . لم تعد صغيراً ياحميميد . . أنت رجل تبارك الله . .

مرّة أخرى تعود اللحظة سوداء قطران . . يسقط فوق القلب . شيء يشبه قطعة زجاج حادة . . يجتاحني ضباب آتٍ من آفاق بعيدة . . يطوق كل المنطقة التي أوجد فيها . . يختلط كل شيء . . يبدأ في الإنكشاح شيئاً فشيئاً . . ويأتي حميميد طفلاً جميلاً كالبحر .

— « سنفتقدك ، يابابا . . »

— « أوه ، ياحميميد . . لقد اصبحت رجلاً . . »

ببراءة صبي ، تخطى مرحلة الرجولة . .

— « نترقب عودتك السريعة . . »

إيه ياحميميد ياوليدي . . يانصف قلبي المتآكل . .

عش سعادتي . . لكن أرفض . . أرفض بشجاعة، أيام بؤسي . . فالذين قتلوني من الداخل هم نفسهم ، سيقتلونك يوماً ، مستعد للموت ، وإن كنت لاأكره الحياة أبداً .. لكن حيث نتوقف نحن ، واصلوا أنتم . .

وحدكم ، أنتم الأطفال ، مؤهلون، لتخبئة الحلم، في بوابات عيونكم لصيانته من أرجل شرسة تهدده بالوطء . .

ياحميميد . . كن من تكون . . طبيباً . . مهندساً.. معلماً . . لكن لاتخرج عن الذين صنعوك . . الذين وضعوك وأعطوك هذه الرجولة . . عن الماندرينا ، التي تعشيت وتغذيت بها . .

« ليس عيباً ، أن يكون المرء، طبيباً ، وماندرينا في نفس الوقت . . »

— « رحلتك طويلة يابابا ؟ ؟ . . »

— « حتى تشبع ونشبع جميعاً ياحميميد . . »

وكان لابد أن أرحل عنهم . . وأعود ذات ليلة محملاً بغنائم الرحلة . . خبز ولباس ، وزجاجات خمر

أتقاسمها مع الأحباب ليلة الأعراس . . صدق ياحميميد، أني فعلت ذلك مرغماً . . مرة أخرى لم يكن لدي الخيار.. وتلك مزيتي ، ونقطة ضعفي ، في نفس الوقت . .

أنا لاأكرههم . . أنا كذلك أحب أبنائي ووطني.. أحب رائحة الخبز المحروق ، فوق التنانير البدوية . . أحب اللعب ، والجري تحت الأمطار ، وأن أعيش سعيداً . . أمقت شيئا واحداً . . من يأكلني وعيوني مفتوحة . . يمتص دمي، وبعظامي ينقي أضراسه المسوسة.. حميميد ، كن رجلاً ، وأعدك،أني حين أعود من منفاي، وتكون أنت ، وقتها ، رجلاً . . سنحْضنها ونجعل منها امرأة بهية . . البلدة المرمية على هوامش الإنقراض.. وتحفظ هي ، وقتها عيوننا ، من رداءة أزمنة الإتلاف . . نعانقها ، حتى نسمع خرخشة ضلوعها ، وهي تتكسر حبّاً وشوقاً . . سنحضنها ولا نضيعها أبداً .. سنجعل منها امرأة زاهية . نقطة دم ثانية ، تسقط من قهر الذاكرة . . مالحة ، مالحة ، كأمواه البحر الميت . .

كان المطار مكتظاً بالرائح والجاي(١) . . حميميد..

---

(١) القادم .

أمي حلّومة بنت الزكري . . يتأملونني بعيون علتها سحابات حزن شبقية . . دمعات صغيرة ، كان بينها وبين النزول خيط رفيع ، من الصبر القاسي

« مال قلبي يرمي بأشرار

شاعله في قلبه جمرة . . »

العالية ، بنت العسكري المتقاعد . . عالية الآن تبارك الله . . ورثت كل غنائم الحروب الفائتة . . أبوها، من المستفيدين من هذه المناسبات . . كنت أكرهه كدم الأضراس . . الحقد الطبقي صعب . . صعب جداً . . وأكره كل ماتأتيني به ، من عنده . .

هذا الصباح ، لم تكن راضية عني . . ولا دعت بالسلامة . . عاملتني ، بقساوة .. ربما كانت تحبني . . لكنها عاملتني بقساوة ياحميميد . . ورأس أملك مريم اللويحة.. لو وجدت بنت العسكري ، طاقة لداستني بكل دبابات العالم . . ربـّما لأنها كانت تريدني أن أبقى بجوارها ؟؟!!

هددتني برمي الطفل . . حميميد من النافذة، إذا لم أعدل عن فكرتي هذه . . لايهم . . فلتفعل مابدا لها . . حميميد

سيتعب . . سيفتقد كل شيء . . حتى حنان الأبوة المتبقي . . لكنه سيكبر ويصبح رجلاً ، ويعرف من هم أعداؤه ومن هم أصدقاؤه . . سأتركه عند جدته في الدار القديمة التي تساقطت بعض حيطانها إثر دوي المودتر ، وقت العسكر ، والزمن الملعون . . حميميد يحب جدته « حلومة » أكثر من بنت العسكري . . فعندها كان يلقى الحنان الذي افتقده في غياب مريم اللويحة . .

— « أمي حلومة . . الطفل صغير . . »

— « في عيني ياوليدي . . »

— « حميمدو . . جدّتك ، كما اتفقنا . . »

— « نعم . . نعم . . »

بكت جدته ، في تلك اللحظة ، المشحونة بالأسى والغبينة . . تأملها بعيون صبي ، لم يكتشف بعد فظاعة هذا العالم وسخف وجهه المتبرج بدم التعساء . . انهمرت دمعة صغيرة على خده ، ربّما هو نفسه لا يدري كيف ، ولماذا سقطت هذه الدمعة في هذه اللحظة بالذات . .

« ياالرب العالي . . صغير والهموم قاتلاتو . . »

بدوري . . اضطررت لايقاف أشياء ، تحركت في عيني كقطع الزجاج . . كنت أخاف عليه ، أن يندلع في صراخ وعويل ، داخل هذا المطار ، المكتض ، بخلق الله من مختلف الأشكال والأحجام . . فأصرخ بجانبه ، كطفل مجروح القلب ، يستعيد ، في لحظة حزن قاسية ، كل صراخات الولادة ، المكبوتة . . حميميد . . أنا لم أخبىء عنك شيئاً . . لم أكن مخيراً في ذلك . . فأسئلتك الصغيرة ، كانت كقطع الزجاج المكسّر . . فأخبرتك عن أملك التي سقطت ، لتكون أنت بهذا الجمال الذي يثير الدهشة .. أخبرتك كذلك بأننا كنا نعيش كقطين مرميين في خلاء موحش . . تعيسين كنا مجرد فلاحين صغيرين يأكلنا ، المختار بودينار ، والحاج خليفة و . . نتعب من أجل أراضٍ هي في الأساس ملك لغيرنا . . نموت من أجل أشياء يستنزفها الرجال الغامضون . . اخبرتك عن العلقة التي امتصت دمنا من الداخل . . ومع ذلك ، كنا ياوليدي سعداء على الأقل ببعضنا . . نبحث دوماً عن لحظة دفء معتقلة عندهم ، منذ سالف الأزمان والعصور . . شيْء من الفرح ، كان يطفو من حين لآخر ، فوق هذه المساحات السوداء من الحزن . .

« الرجاء من المسافرين إلى باريس أن . . »

أثار انتباهي ، صوت امرأة ينبعث من إحدى زوايا المطار . . أحسست برعشة الفراق . . أنا البدوي الهائم على وجهه إلى عالم لايعرف منه إلا الاسم . . ياالله ، سأواجه امرأة شرسة ، لاأعرف منها إلا الإسم . . باريس . .

« باريس أم الجياع »

هكذا ، يقولون . .

نزلت نقطة ثالثة . . ساخنة ، بشكل محرق ، من زاوية مجهولة من جسدي . . تقدمت أمي مني ، بكل سنواتها المتعبة ومرض القلب الذي تحمله معها ، منذ تزوجها أبي . . قبض حسيد على عباءتها . . طفلاً كان . . يحس بوطأة الألم ، كالرجل تماماً . . أراد أن يصرخ . . لم يسعفه ، صوته الصغير ، فاكتفى بأن دفن رأسه ، في حجر جدته ، حلومة . . حتى لايسمع أنينه أحد . . ربما كان يصرخ بصمت ! ! ؟ ؟ ربما كان يبكي ! ؟ ؟

العالية . . قلبها غليظ . . لو تركته عندها لكانت أكلته نيئاً ولدعتني برسالة ، وأنا في أرض الغربة . .

« طفلك مات مسلولاً . . الله يرحمه . . »

رغم أحزانه ، التي يدفنها في قلبه الصغير ، أحس ، كأن بداخله أرنباً قزماً ينط . . فهو عند امرأة يحبها . .

ودعته . . قبلة صغيرة على الجبين . . حاول أن يبتسم بخجل . لأول مرة أكتشفه بهذا العمق ، وبهذا النهم . . جميلاً كان . . عيونه بحر . . قامة فارعة ، في حدود السن . . والله كان لؤلؤة تثير الدهشة . . جمال صارخ . . لولا هذه السحابات الصغيرة من الحزن التي تموج فوق عينيه . .

كن من تكون ؟ ؟ ! ! طبيباً . . محامياً . . مزارعاً . . عاملاً . . لكن إياك أن تنسلخ عن واقعك . . فمن عاش الآلام والجوع ، ومن مازال شوك الفيافي مغروساً في قدميه يستحيل أن يضرب نفسه بنفسه . . يسخط عليه جميع الناس ، حين تداهمهم أعوام الجوع . .

نقطة دم رابعة . هذه المرة أحسستها ، تخرج من الثدي مملوءة بالصراخ ، وأساخ المنجم وارياح العودة الاجبارية .

قذفتني باريس . . اطأ عظامي ، استرعورتي ، كآدم بخرقة بالية . . ثم استردتني ثانية ، وثالثة ، وقذفتني ، وأعادتني إلى صدرها لأرضع كالغولة من حليبها . . وظلت العلاقة قائمة بيننا كمن يكره شيئاً وهو مجبر على الرجوع إليه . . لكن المرة الأخيرة قذفتني من أعلى قمة ، بكل حقائبي واشيائي الصغيرة ، وذكرياتي . . أجر ورائي ذيول الهزيمة . . ورائي تصرخ عظام امرأة . عيونها . كانت خير دليل في هذا الزمن الموحش الذي يقتله التوجس إلى لحظة دافئة تقطع من أعماق الدم . حميد ، حين عاد ، لم يكن لاطبيباً ، ولا محامياً ، ولا مهندساً . . كان في السجن . . مداناً . . التهمة . . بث الفوضى داخل الجامعة . . حميد كان فوق كل هذا . . يدرك جيداً أنه منذ البداية هناك قوم مفلسون يصفقون للفوضى في أعماقهم ، كانوا على رأس هذه المهازل . .

ابن أبيك ياحميد . . طالباً في الإقتصاد كنت . . بكل عظمة صنعت حياتك . . النهار دراسة ، والليل عمل واشتغال في نزل اليهودية مارغريت التي جاءت من أمريكا وسخرت كل رؤوس أموالها في خدمة هذه الأرض .

التي حاربت رأس المال، بأستماتة . . في رسائلك ياحميد التي كانت تصلني ، وأنا وسط عفن الغربة . . كنت أحس كأنك تريد أن تقول أشياء كثيرة ، عن هذا العالم الذي سيلد من يأكله ، ذات ليلة . . لكنك كنت تخاف.. تحذر . . وكنت أنا كذلك أخاف عليك . . فالرسائل تفض في منتصف الطريق . . وأصحابها ، يعاقبون حسب مايمليه القانون ؟ ؟ قانون القتل ياحميد ياابني . .

في الرسالة الأخيرة التي وصلتني ، وكنت قد افتقدت روزا . . وافتقدت معها القلب الطيب ، أدركت أن الطفل قد أصبح رجلاً مشاغباً . . يتحدث عن أشياء يمنع القانون الخوْض فيها ، منعاً باتاً . .

أول من لقيني ، حين قذفتني رياح العودة الإجبارية.. كنت أنت ياحميد . . ياالله . . رجل بكل عظمة الرجال.. هذه العيون البحرية ، تذكر بمريم اللويحة .. الواسعة كالعالم . . آه . . هذه المرة ياحميد سآخذ مكان . « دبليسكوز(١) » وأصبح أنا مندوب وزارة الحربية

(١) مندوب وزارة الحربية في كومونة باريس ١٨١١ .

لدى الكومونة . . الكومونة التي ستولد في هذا الوطن ..
وسأوجه نفس الرسالة التي وجهها لرجالات الكومونة..

« لدي ثلاثة أبناء ، يخدمون في الحرس الوطني ..
وأنا نفسي أخدم في الفوج ١٧٧ ، ولي ولد فتي . . يناهز السادسة عشرة من عمره ، وهو يرغب من صميم قلبه ، أن ينضم للخدمة في أحد الأفواج . . فهو قد أقسم لإخوته على حمل السلاح للدفاع عن جمهوريتنا الفتية ، ضد السفاحين ، رجال فرساي . . »

. . أنا مستعد، لأن أرفع الراية عالياً . . عالياً ، مع « دبليسكوز » . . وأدفع بنفسي ، وحميد الوحيد إلى ألسنة اللهب . . نموت بشرف ، أو نحيا رجالاً في عالم يحتاج إلى مبادرة مدروسة ، لترتيب وجهه المتداخل ..
وهذه المبادرة لاتأتي إلا من أياد أكلتها سوسة الإقطاع وعفن المناجم . . و . .

أنا وأنت والآخرون ، ياحميد من اليوم فصاعداً من رجالات الكومونة . . نضع المتاريس، ونسقط إذا كان لابد من السقوط رجالاً ، ولتشرق الشموس الدافئة التي احتجزوها وراء سواد الغيوم . .

« حميد . . قفزت ، فجأة في وجهي كالبحر . . هل كان من الضروري أن تهاجمني في هذه اللحظة بالذات . . لست أدري . . صدق أني لست أدري ، وكلّ ما أعلمه حتى الآن . . أني دفنت عزيزاً آخر ، وأضفت إلى قائمة الشهداء شهيداً . . »

* * *

- ٩ -

إيه ياعليلو ، يارفيقي الطيب . . هل ارتكبت حماقة في حقك . حين وضعتك في قلب النهر . لتسافر مع المواكب غير المزيفة . . مواكب الرفاق الذين أكلتهم هموم الأحزان . .

صوتك ياعليلو ، يأتيني ، دافئاً مع بدايات الفجر ، الذي مايزال بعيداً . . أعدك ، بأني سأصل . أو يعثروا علي صباحاً ، واقفاً ، متجمداً . . ميتاً . . وهذا قليلاً مايحدث ياعليلو الزمليط . .

بصراحة ، يارفيقي ، لم يكن لدي الإختيار فيما فعلت . .

الأمطار توقفت نهائياً . . أمواه الوادي . في حركتها الروتينية العادية . . الليل ، وأنا كالحيوان البري ، أصبحت أرى الأشياء حتى ، حين تكون الظلماء قاسية . .

طويلة ، هي المسافة ، ماتزال ، ياعاشور . . الأشواك والقندول والحشائش المنتصبة التي تدمي الأقدام . .

ياعاشور . . امش على ضفة الوادي ، وستصل .. ستصل لامحالة . . كلام عليلو يزن الجبال . . التعب غصة في حلقك . . قلبك في فمك ، ومع ذلك أجر ، فما زالت المسألة بين يديك . .

ياالله ، لو لم ينصحني بالمشي في هذا الطريق ، ربـّما كنت ضعت . . ربـّما كنت بحثت عن مخرج آخر . . أكثر اختصاراً . . وتفاديت على الأقل هذه الأشواك المسمومة . . هذه السّدرة المدببة ، وهذا القندول الذي لايعرف الموت ، لاشتاء ولا صيفاً . . اللزوجة . . الوحل.. اليأس . . الآلام الذي استيقظت دفعة واحدة ، وأخذت تهاجم بسكاكينها القاتلة . . آه أينك أيها اليباس ؟ ؟ ؟

آخ ، هذا العريش . . هذه الروائح ، كلها لعنات مضافة لهذا الليل الذي مزقنا والذي يحمل في جوفه كل توترات الأموات وصياحهم المخيف وصراخاتهم النازفة..

« الموت هناك في زاوية ما ، بعينين حمراوين،يترصدني بشهوة . . »

حاولت أن أحدد موقعي . . أين أنا . . حتى الآن ؟ ؟.

في خلاء موحش . . بجانبي يمتد الوادي كالثعبان.. شجيرات القندول ، والعريش ، والعرعار . . تغلق كل المسافة في وجهي . . اللباس ممزق . . ثغور جديدة تفتح داخل جسدي . . ليس لدي الأختيار . . ليس لدي الإختيار . . إذا بقيت على هذه الصورة ، سأصل غداً ، أو بعد غد ، أو بعد شهر . . أو ربّما يفاجئني الموت ، كالذئب في منتصف هذا الطريق . .

الشجيرات كثيفة بشكل يدعو إلى اليأس . . هي الغابة ، ياعاشور ، التي حدثتك عنها عليلو . . إذا قطعتها بخير ، معناه أنّك لست بعيداً . . خرير النهر مايزال يساقط على آذاني ، ويعطيني رغبة لاتقاوم للغوص فيه حتى التهلكة . .

تأملت الوادي جيداً . . كتلة من السواد . . مددت يدي ، كان دافئاً ، وكنت أرتجف بشكل فظيع . . حاولت أن ألقي بنفسي فيه . لكن شيئاً غامضاً منعني وحال دون القيام بذلك . . ربّما الخوف من الموت ، من يدري ؟ ؟ . .

واصلت سيري ، محاذياً الوادي . . المسألة أصبحت

متعبة أكثر من أي زمن مضى زيادة على المشي الثقيل .. داهمتني بشكل مخيف ، ومتعب آلام الظهر ، والسكر ، بكل إبرها المسمومة ، التي ترشق كالخناجر الصغيرة الحادة . . التعب . . الارتجاف . . ووساوس الخوف ..

أغصان العريش القزم، المتكاثفة . . تمنعني من الجري ، والبحث عن زرقة البحر . . الممرات مغلقة ، تحتاج إلى بذل طاقة لفتح ثغرات للمرور . . المؤكد ، أن هذه الجهة أمازونية ، لم تطأها رجل قبلي . . كثيفة كثيفة كالهم .. كهذه اللحظة التي تطعن من الخلف . .

يقول عليلو . . أن الضفة الأخرى أقل صعوبة من هذه . . إذا استطعت أن أقطع الوادي يكون حظي في الوصول أكثر . . فلأجرب ، ماذا أخسر ، إذا بقيت ههنا ، في الصباح يأكلني العسكر . . وإذا حاولت المرور إلى الضفة ، هناك مخاطر الوادي . . والمتاعب الثانية ، ربما أقل بكثير من الأولى . . حتى الآن لاأدري المسافة التي قطعتها ولا المسافة المتبقية . . مجرد تكهنات . . واعتمادات على كلام عليلو . . من يدري ، ربما أكون

قد ضيعت الطريق الذي أرشدني إليه . . هذه مسألة أخرى عليها أن تطرح حتى لاتفاجئنا كالمدية . .

لأضع نفسي على منقار عفريت ، وأرتمي في هذا الوادي ، حتى الموت ، من يدري ، قد تكون هناك العوائق أقل.. فعليلو رجل ،وآبن الرجال ،ليس من مصلحته ، ولا مصلحتي ، أن يكذب علي . .

الوادي يفتح فاه كالتمساح ، بدأ يتضح أن التيار قوي . . فالوادي ربّما يغلي من الداخل . .

الآن بدأت الخيوط تتضح . . أصبحت أفرق إلى حدّ بعيد ، بين الأجسام والكتل السوداء . .

« الدم حار . . والنفس تموت هاربة . . »

أجر ياعاشور ، وعليك أن تقوم بكل مايمكن أن يختصر لك الهموم والمسافات . . لاتتوقف ياوليد البلاد . . أنت تعرف من يكونون . . كيف يتحوّلون . . الكلاب.. الذئاب . . البقر الوحشي . . البقر الهولندي . . أجر وإن اقتضى الأمر ، أن لاتتنفس . فلا تتنفس . .

آه . . كيف أجري ياأخي ، وكل الطرق مسدودة..

هي لحظة الأختيار ياعاشور . . الوادي وحده كفيل بايصالك إلى البحر . . إلى الزرقة التي سقط من أجلها عليلو ، ولم يلثمها . .

أرتجف . . أرتجف . . اختلط سم البرودة والخوف . . هو ذا الفجر ياعاشور . . قد بدأ يفتح عينيه . . يستيقظ بتثاقل . . ضع روحك فوق منقار عفريت وخلص نفسك.. كل مافعلته حتى الآن داخل هذه الغابة ، هو وقت ضائع . . لايوصلك إلى البحر ، إلا بعد قرن . . هيا افعلها ، وليكن مايكون . .

إذن ليس لدي الأختيار . .

« آخ أنا دائماً أجد نفسي في مثل هذه المواقف التعسة . . »

« هوب »

ارتطامة جسم ثقيل . . أحسست بدفء الماء يتسرب الي كل أعضائي . . الآن دخلت التجربة ، علي أن أقاوم..

المسألة أصبحت تطرح بشكل آخر . . أن أقاوم بشراسة أو يبتعلني بكل تلذذ عمق هذا الوادي . .

صارع . . صارع ياحبيبي . . صارع وإلا وداعاً ياعاشور ، وداعاً ياالماندرينا . . الوقت محدود . . والوصول إلى الضفة الأخرى ، أمر ليس هيناً . .

« والبر بعيد آبويا . .

وصياحي طال ، آبويا . . »

أنت متأخر جداً ياعاشور . . فعليلو حين نصحك بأتباع هذا الطريق عند الضرورة ، كان يحسب حساب هذه العوائق المتعبة . .

أصبحت أعرف الآن ماذا بالوادي . . لم يكن هادئاً كما توقعت . . التيار يجرني إلى الأمام ، بكل ثقلي . . تصدم رأسي بعض الأجسام الغامضة ، فأضطر إلى الغوص برهة تحت الماء ، أقاوم . . ثم أرفع رأسي . . وكذلك كنت أفعل كلما صادفتني مثل هذه الأجسام . التي لم تكن في الحقيقة ، إلا فروع بعض الشجيرات العائمة ، أو المتدلية من الضفة التي كنت فيها . .

التيار مازال يزحلقني . . كل ماأخشاه ، في اللحظة هذه . . أن أسقط على رأسي ، من قمة شلال ، تنام في قرارته صخور مدببة ؟ ؟ حتى الآن الأمور ماشية . ويمكنني ، في أية لحظة أن أقبض في هذه الأغصان التي تتوسد أمواه الوادي الدافئة . . وأستطيع أن أنجو بأعجوبة. ولِمَ لا ؟ ؟ ؟

« كل الوديان متشابهة ، وأنت ابن الماء . . »

مريم اللويحة ، كانت تسبقني . . تسبقنا جميعاً .. كانت أخف . . جسمها رقيق . . سنبلة . .

« صَحَّ يااللويحة . . سأقول لأبيك حين يعود من الصيد . . »

هي لاتتذكر وجه أبيها حتى قبل أن يبتلعه البحر . . يسافر ليلاً . . في الصباح يبيع الأسماك . . الصناديق التي يتبرع بها صاحب القوارب . .

أنا وهي . . تسبقني . لكني كنت الرجل . . « رب المقلة » دائماً في الربح وفي الخسارة . . وهي . . اللويحة

الخفيفة ، كسائر اللويحات في مجتمعنا . . امرأة في الربح ، وفي الخسارة . .

أطفالاً كنّا . . نطبق الأشياء الكبيرة ، في ألعابنا، ولهونا الصبياني . .

في نهر العين الخضراء . . الذي يتساوى فيه خلق الله مع البهائم ، في الشرب ، يطاردنا عمنا الشيخ المهري الذي أكلته السنين ، حين تشتد حرارة الصيف ..

« جنون الماء . . الله يلعن اللي مايستحي . . »

نهرب عرايا ، كما نزلنا من أرحام أمهاتنا المحروقة..

« اسمعي ياللويحة . . سأقولها لأبيك ، ينتزع لحمك..»

يطاردنا بتثاقل . . نجري . . غزالين صغيرين . . نئط كالأرانب المتوحشة . . في أيدينا خرقاً بالية ، ممزقة.. نلتجيء إلى ركن ما ، وراء السدرة العملاقة، نلبس حوائجنا ونبدأ في ألعابنا الإعتيادية . . لحظات الشبق الطفولي الساذج، الذي يمارس خلسة . . صبية لاحرج علينا . .

وحين يعاودنا ، صراخ الشيخ المهري . . نضحك.. نقهقه . . حتى إذا أحسسنا بوقع خطاه الثقيلة ،تقترب منا ..

« هاني . . (١) هاني . . والذيب كلاني(٢) . . »

نتراقص بجانبه ، كالضفادع الصغيرة.. جنُّ الماء، كما يسمينا . . وحين يبدأ في الغليان ، ونحس أنه وصل المرحلة القصوى من الانزعاج ، ويحمل الحجارة لمطاردتنا.. نفر ، وهذه المرة بجدية . .

آي . . رأسي . . فاجأتني كتلة سوداء ، لم أنتبه لها.. الصدمة ، كانت خفيفة . . »

الوديان متشابهة . . »

آي . . آي . . الدفء بدأ يتحوّل إلى برودة سامة .. قاوم ياعاشور . . قاوم . . التيار قوي جداً . . قوته ، أكبر من قوة جرار . . وأنت النملة . في قارة من المياه. تارة تتقيؤك ، فوق السطح ، وأخرى تبتلعك بشهوة . . قطة ، تلاعب فأراً صغيراً . . حاول أن تصل الضفة ، وستصلها . . لايهمك الوقت . . المهم ، أن مفاتيح القضية ماتزال بين يديك . . التعب . . التعب ياعاشور المانادرينا . . والقلب الذي تكاد تتقيؤه . . الفم مملو

(١) ها أنا .

(٢) أكلني .

برغوة صراخ مكبوت . . والمسافات ماتزال طويلة . والبر بعيد . .

« إيه ياعاشور الماندرينا . . الدنيا صعبة ، والعيش بشرف أصعب . . »

خيل لي في تلك اللحظة ، وكأني لم أتقدم بوصة واحدة . . مازلت في المكان الذي غطست فيه ، أول مرة ، أتخبط . . اتخبط عبثاً . .

تزحلقني قوة الأمواه من جديد . . أتشبث بالجذع العائم فوق الماء . . وأتفادى صدمة التيار القوية . .

« قبل هذا التاريخ ، لم أكن أعرف أن الوديان ، حينما تحزن تزمجر بعظمة ، وقوة . . » تدحرجني الأمواه أكثر . . يصطدم ، رأسي ، بجسم ثقيل . . أمد يدي .. رجلاي في حركة دائمة . . أمسح على رأسي . . تصدمني الأمواه بقوة . . أنسى الضربة المفاجئة . . أقاوم بشراسة .. والتعب . . واللسان الذي تدلى حتى أصبح طوله غير عادي . . كل مرّة أقول في نفسي . . هذه هي نهايتك ياعاشور . . هاأنت ، قد وصلت الشلال ذا القرارة المدببة

بالصخور القديمة ، المنحوتة من كثرة تساقط الأمواه عليها . . استعد لتحمل الصدمة الكبرى . . سينفلق رأسك.. سيفج ويخرج مخك ، لتأكله هذه الوديان الصاخبة . . جسدك سيقطع أطرافاً . . أطرافاً . . أنت تعاكس التيار.. لكنه حتى الآن هو الأقوى . .

« تفكيرك أسود ياعاشور . . قاوم . . النفس تموت هاربة . . »

آه ، من هذا الزمن الأسود . الذي يغرق أبناءه . .

أحذر..احذر.. أحذر ياعاشور. . كتلة سوداء .. رأسك ياعاشور ، وإلا أغمي عليك ، وساقتك الأمواه عند ثغور البحر بعد أن تتمزق كتلاً ، كتلاً صغيرة عند سقوطك في الشلال . . .

أي شلال ياعاشور ؟ ؟ تبدع أشياء ، وتطرحها كواقع حقيقي ؟ ؟ يبدو أنك بدأت تدخل مرحلة الهذيان ؟ ؟

آخ . . هذه الأشواك التي تطفو فوق السطح . . الأجسام السوداء ، الآتية من بلدان بعيدة . . تدعو إلى الخوف

من الموت المفاجىء . . قاوم ياعاشور . . قاوم . الرجال لايموتون بسهولة . . الضفة لم تعد بعيدة كما كانت . . الماء ، يزحلقك من جديد إلى الأمام . . ياه . . بهذه السهولة ؟ ؟

نسيت كل أتعابك ، حين فاجأك جذع الشجرة ، والصخرة الكبيرة . . الرحلة نجحت على مايبدو ، لكن القلب في الفم ، والرئة مثقوبة من كثرة الضغط . . لم تنته الرحلة ياعاشور . . عليك أن تواجه العالم بضراوة.. بينك الآن وبين البحر مسافة الموت .. عليك أن تقطعها ،ولو مشياً على الأيادي . . زحفاً على الصدر . . المهم أن تصل إلى ثغور البحر ، الذي ينتظر قدومك بشهوة . .

* * *

- ١٠ -

على الضفة . . قطاً كنت . . عارياً . . أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي . . الموت بدأني من رجلي اليمنى ، هذه المرّة . . عيناي محروقتان . . لم أعد أرى شيئاً . . لست أدري كم من الوقت مرّ علي، وأنا أتزحلق في هذا الوادي، ولا المدّة التي كنت أقاوم فيها شراسة التيار العنيف . .

انتفضت ككلب غطس مرغماً ، في بركة ماء باردة..

تذكرت . . متأخراً كنت ، في وقت هاجمتني فيه الأمراض ، والمتاعب بكل سيوفها المخيفة . . خفت ، أن أكون قد انتهيت . .

عاودت الجري . . فبيني وبين هذا العالم الأرعن ثأر لا يمحوه إلا الدم . . الوحل . . بدأت أحس بنفسي ، وكأني أجري إلى الوراء . . حلمي في صدري مطوي عدة طيات . . والقلب النابض بقوة . . كحصى الطرقات ، يملأ فمي بكل صلابة وجمود ، كقطعة زجاج . . الرئة ،

تصعد إلى الحلقوم . . تسد كل المداخل . . ثم تعود إلى مكانها . فأملؤها عن أخرها بهذا الهواء البارد . . كنت أخشى أن اتقيأها فأسقط مخنوقاً في زاوية من هذه الزوايا المظلمة . .

عاشور . . عليك أن تجري . . أن تتجاوز لحظات اليأس والضعف . . أجر . . لو يقبضون عليك ، يطبقون عليك ، كل مافي القانون من حسم وقتل ، في مثل هذه الأمور . ستشنق قبل طلوع الفجر . .

خيل لي أني أسمع نباح الكلاب . . وأصواتا غامضة . . تأتي من نقطة بعيدة من هذا الامتداد . . لكني أجبرت نفسي على رفض التصور . . بيني وبين الكلاب مسافة أجيال بعيدة . . بعيدة جداً . . تعبان أنا ، وفي تعبي ، تستيقظ كل الخرافات ، والخوف . وأشياء أخرى تنزل على الظهر طعناً . ببرودة ، دم ، وقسوة . . أجر ياوليد البلاد . . هذه المرة لو يقبضون عليك . سيجرجرونك ، كالجثة فوق هذه الأشواك ، وهذا الوحل الذي لم تضعه في الحسبان وأنت تستعد للغوص في الوادي حتى التهلكة . .

لن يدللوك ، ياعاشور المادرينا ، كما يفعل معك عمي بالخير الديواني . .

« اذهب ياهذا الجرو .. خذ بضاعتك وطر .. » .

ياه .. اللحظات .. تتشابه بشكل رهيب .. الظرف هو الفارق الوحيد بينها .. الأساس .. الاب .. هو القاسم المشترك .. وحق الله ، اللحظات تتشابه بشكل غريب .. الحدود .. الموت .. والهروب ليلاً ..

« سترى من أكون ، ياهذا الفرخ .. »

ولد الرومية .. الله يلعنه .. عيونه مخيفة .. لا يشبه في شيء ، الناس الطيبين .. يدرس البرتقال درساً .. يرمي الصناديق في الفراغ .. يمشّي فوقها الحمار ، فتتفرقع الألواح والبرتقال ، كحبات البيض ..

— « ياعمي الله يسترك .. نحن بؤساء .. »

— « بؤس أملك .. أنت جرو مشبوه .. »

البضاعة تضيع .. صفعات تلذع الصدغ بقسوة .. الحمار يتيه في الفيافي .. وأنا الطفل المهزوم العائد من حرب طروادة بتاريخ من الهزائم الشنيعة ..

اللحظات تتشابه .. الحدود .. والموت .. ومحاولة الهروب من جنون الليل .. أحمل الزيت والقهوة وسكر

« القالب » ، وأشق بها طريق « الوحدة » . . على حمار عجوز لايساوي ثمنه . . وهناك أبيع وأشتري الماندرينا.؛ خذ وأعط . . أحافظ على العملة . . فدراهمنا إذا دخلت بها الحدود اسقطت نصفها من الحسابات ، إن لم يكن أكثر . .

البلدة . . بلدة برتقال وماندرينا . . أمّا التفاح ، والحكايات الأخرى فهذه ليست من اختصاصها . . وأتذكر أني ، كنت صغيراً . . كانت أمي فوق شجرة الخرنُوب.. تنفضها . . فصحت ببراءة صبي ، مايزال يحمل الجهل مجسداً في تصرفاته .

« ياماما . . انزعي لي بنانة(١) تكون كبيرة . . »

وكان القصد منها ، الخرنوب . . تصرف في محله، لطفل لايعرف ، لاطعم ، ولا لون ، ولا شكل الموزة في هذه البراري . .

في طريق العودة . .

العسكر من هنا ، ومن هناك . .

---

(١) موزة .

صغير . . يتعنّت ، ويفكر بشراسة حيوان . . لأقطع الحدود ، ولأمت على أرض وطني . كما مات أبي ، الذي أكلته الحروب الفائتة . . لا . . لا . . قد لاأموت . . فجمارك الحدود ، قلوبهم بيضاء كقطعة قماش . . لاأتصور أنهم يتجرؤون على قتل قط متسخ لم يشبع كرشهُ . .

الليل . . والخوف . . والموت المفاجىء . .

— « قف ، وإلا أطلقت عليك النار . . »

تنفتح عينايا على آخرها . . أركض كالأرنب . . كالبرق . . هلعاً . . وأسافر مع مواكب الظلمة ، إلى أماكن مجهولة . . عندما يكون الخوف أقوى ترتفع كل المؤشرات إلى أعلى . .

« قف . . »

لاأقف . . الظلام . . أزوغ كالقط الوحشي . . ادخل الخلجان ، تاركاً ورائي حماري العجوز . . وصندوقي الماندرينا . . غريب . . لماذا لم يخيفوني كالعادة . باطلاق النار ، في الهواء لعلّهم يكونون ، قد عرفوا ، أن الحمار

الكهل ، لايحمل على ظهره قنابل . . وأنني لست جاسوساً . .

قطعت الحدود . . منهاراً كنت . . حاولت أن أكمش على لحظة هادئة هاربة . . أضعها في قفص صدري ، وأستريح قليلاً . . فأنا في أرضي والحمد لله . . وفي تربة كان يتمرغ فوقها أبي ، ويتظلل تحت هضباتها ، قبل أن تنهكه الحروب . . فاجأني نفس الصوت ، مع ضخامة في النطق . .

« قف وإلا . . قف . . قف . . »

هائمون في البراري كقطعان الخنازير . . وكطعنة من الخلف يفاجئونك . .

الوادي ، بقربي . . وقد يكون نفس الوادي ، الذي كاد تياره يأكلني . . آه . . هذه المرة سيطلق علي هذا الملعون ، نيران بندقيته . . فهو ليس رجلاً إلا بها . . قط صغير . . لاشيء يبرر موقفي ، أنا الطفل التائه بين نارين.. صبي والليل ، والحماقات الطفولية . . لِمَ ، لا أعود ، إلى خط الحدود ، وأقف هناك ، ثم ألعن ، وأشتم حتى

يكاد يغمى علي . . ومن تجرأ على ضربي من هنا ، أو من الجهة الأخرى ، سأسقط عنوة في حدوده . .

« هذا قتل في أرضنا . . »

وبعدها ، تشتعل نار الفتنة بينهم . .

كلاب مسعورة ، تأكل بعضها بعضاً . .

صبياً ، كنت ، بكل حماقاته . . وشراسته المغلوطة، وحب الانتقام الذي لا يوصل إلا للمضايق الخطيرة . . لم يكن هذا حلاً مقبولاً لدي . . مجرد تصور ، في لحظة طائشة . . فأنا أعرف منذ البداية . . أن البنادق ستثقب لحمي من الجهتين . . وبعدها ، يتصافحون . . ثم إذا كنت محظوظاً ، أدفن ، ككلب صغير في هذه البرية الجائعة..

الليل . . والموت . . والخوف . . مازلت أجري .. أجري . . براقاً . . وورائي كهل ثقيل . . لاشك أنه ، أقسم « بالطلاق ثلاثاً » ، أن يلحق بي ، وإلا ليس أبن أبيه . . وأقسمت ، أنا الطفل الجائع التائه،على وجهه في هذه اليابسة التي لاحد لها،بأن لايلحق بي. وإلا لست عاشور الماندرينا، الذي أتعب ولد الرومية . . وأرهقه . .

صبياً ، كنت . . والليالي المخيفة . . والصدر الضيق..
حزين . . والمسافات طويلة . . لم أكن في تلك اللحظة
عاشور الماندرينا . . حملني على كتفه الأيمن ، ثم أخذني
من ظهري ، كما يؤخذ القط من جلده ، بيد طفل صغير..

« أيها الجرو ، القذر . . ماذا تفعل على الحدود . . »

تعب حتى الأعماق . . أحس بروحي تخرج مع
أنفاسي المتقطعة . .

— « دعني أستريح . . »

— « أعرف ماذا كنت تفعل ، ياهذا الكلب الصغير..
« (سأريك الزنباع وين ينباع) . . »

— « ياعمّي . . . »

— « العمى . . لست عمك . . . »

الله ، يلعنه ، زمناً ، لايقدر أبناءه . . أمّي ،رخيصة،
عند هذا الرخيص،الذي لايصلح إلاّ (١) شكوة للدقيق ..
شعرت بحاجة ماسة إلى البصق في وجهه . . استجمعت

(١) كيساً .

مخاطي ، وريقي ، وهممت بفعل ذلك . . قررت أن أبصق ، وأصرخ ، أصرخ . . وأعض ، هذا اللحم المنتفخ ، حتى يغمى علي . . حاولت أن أهرِب . . ضربني بقوة على رأسي . . أحسست بالعالم يدور على غير العادة تحت أقدامي . . انتبهت إليه . . عدلت عن كل مشاريعي . . فالسيد ضخم كالحلوف . وباستطاعته ، ابتلاعي دفعة واحدة . .

لساني تدلى . . خلت نفسي أجرجره على الأشواك ، والأحجار المدببة . . عيوني تحرقني . . قلبي . . ورغم الركل والصفع ، والبرد المسموم . . نمت في العراء الموحش . .

مع الفجر ، حين استيقظت . . كانت جيوبي فارغة. . مبعثرة . . حاولت أن أستعيد الموقف . . أخرجت من مخّي كل أشيائي الصغيرة . . نهضت بصعوبة . . آلمتني بشكل فظيع ، الرضوض ، والجروح، التي بجسمي .

بدأت أتحسسها . .

« ياعمي . . »

« العمى . . لست عملك . . »

« أيها الجرو . . ماذا تفعل على الحدود ؟ ؟

كه . . كه . . ماذا . بامكان قط جائع مثلي أن يفعل يتجسس ؟ ؟ يهرب الأسلحة ؟ ؟ كرشه ماتزال فارغة ، والتفكير في مثل هذه الأمور ، يقتضي بالضرورة أولاً ملأها . . كه . . كه . . حتى الحمار . . حماري العجوز ، أفتقدته . قضيت الصبح كلّه ، في البحث عنه بدون جدوى.. هذا هو الحمار الثالث ، الذي افتقده في هذا الخلاء . . بكيته بمرارة . . سأحاول ، أنا عاشور الماندرينا . . بتعنت الصبية ، أن أشتري حماراً رابعاً . . وأبحث بعدها عن طريق فريد لاتعرفه عيون العسكر الليلية . . وفي المساء حين عدت . . وجدت أمّي عند الباب . . كنت ألبس التراب » عرفت كل شيء . . نمت في حجرها كالعادة بكل أوساخي ، على دموعي المتجمدة في عيني ، بحذائي الممزق إرباً . إرباً . .

في تلك اللحظة بالذات ، وفي تلك السن المحدودة.. تمنيت أن أتقيأ على العالم قاطبة . . وأن أصرخ عالياً . .

عالياً . حتى يسمع الكلّ هذا العويل ، وهذا الصراخ ، فيبادروا إلي . . وقتها أحكي لهم حكاية طفل ، كان أسمه عاشور الماندرينا . . طارده الليل والحدود،والجوع ، والجمارك . . وال . .

إيه ياعاشور . . ياولد البلاد . . الموت في حلقك . . احذر من أن تتقيأ أشياءك الصغيرة . . أجر . . اللحظات تتشابه كقطرتي ماء . . الإختلاف الوحيد هو الظرف المتغير . . أما اللب ، فهو نفسه . .

أجر ياوليد البلاد . . الموت بهذه السهولة مأساة ياعاشور الماندرينا . . أنت الذي قطعت الموت في حد ذاته . . من العيب أن تركن اليه الآن . . تسقط . . تنهض . . تسقط . . تعاود الكرة . . المسألة ليست هنا . . المهم أن تصل ، أما البقية فستأتي وحدها . .

أواخر الليل . . والصمت . . الأصوات الثقيلة التي يحدثها حذاؤك ، وهو يغوص في أعماق هذا الوحل . . اللحظات المقتولة . .

« من أين لك أن تعيش ياعاشور . . الموت يحاصرك من كل الجوانب . . »

ذات فجر

عناق البحر

- ١ -

اللحظة واحدة والظرف هو المختلف . .

الفجر يفتح عينيه بتثاقل . . بدأت الأشكال السوداء تتضح أكثر ، فأكثر . . الوادي . . غابة العريش والعرعار المقابلة ، على الضفة الأخرى . . الأجسام السوداء التي تتدحرج فوق الأمواه . . جذوع أشجار . . أوراق .. حشائش يابسة . . كنت أجري ، بشكل جعلني ، كل مرة ، أحس بنفسي وكأني لم اتحرك من مكاني . . بل أجري إلى الوراء . .

تعب حتى الأعماق . . آلام الأمراض . . والقلب الضعيف . . الأرجل الممزقة . . لأول مرّة أنتبه إلى أني كنت حافياً . . القميص الذي على ظهري تمزق إلى ألف خرقة ، وقطعة صغيرة . . صغيرة . . السروال.. كه . . كه . . أضحك بحرارة . . نصف مؤخرتي في الهواء الطلق . . يطل بخجل . .

« ياالله . . الدنيا ، قذرة بهذا الشكل كله . . »

تيقنت .. هذه هي اللقطة الأخيرة من حياتي .. انتهى ، سأموت ، موتاً مكشوفاً . . لم أكن أتصور ، وأنا على الضفة الأخرى ، أن هذه المنطقة ، موحلة . . موحلة . . رمال مبتلعة . . رجلاي تغوصان حتى الركبة . . تعب التيار . . تعب الرحلة . . تعب الأمطار ، والأمراض ، التي تقتل من الداخل . . السكر والروماتيزم ، والسل ، الذي ورثته من القرية ، وباريس ، ومناجم النور والجري ليلاً بدون توقف . . والآن متاعب الوحل مرة أخرى . .

« الموت الأحمر ، هذا ياعاشور ، الماندرينا . . »

أحاول أن أستدرج الحقيقة ، وآخذها ، كما هي.. فأجد أن مافعلته ، كان هو المطلوب ، وأنني حتى الآن لم أخطيء . . فلو حاولت قطع الغابة ، كنت بقيت هناك ، حتى العام القادم ، وأنا أصارع لأخرج منها فقط . . لكن الذي أسقطته من الحسابات ، هو هذا الوحل . . رجلاي تغوصان ، ولا تخرجان إلا بصعوبة وبعد بذل طاقة كبيرة . .

بدون أن أتذكر كيف سقطت ، هذا السقوط المؤلم. ويبدو انه الأخير . . وجدت وجهي ملتصقاً بالوحل . . تحضن الأرض المضمّخة ، دفء جسدي وتمتصني من الداخل . . جسدي كتلة لحم جامدة ، أصبح . . لم أعد أتحكم فيه كما يجب . . حاولت أن أفتح عيني أكثر . . انتبهت . . اجتاحني ذعر قبلي شرس.. كنت كتلة مرمية على ضفة الوادي . . داخلني خوف باردُ يشبه رعدة الموت . . حاولت أن أنهض ، لكن عبثاً . . جسمي مشدود إلى الأرض بشكل مرعب للغاية . . الوخز . . آلام الجروح.. البؤرة التي في رجلي الحافية . . كلها عاودتني ، بشراسة أكثر . .

هنا نهايتك ياعاشور الماندرينا . . كل المراهنات سقطت . . لكن لاتيأس ، سيأخذ مكانك طفل سقط في هذه اللحظة بالضبط من الرحم المحروق، لامرأة بدوية هربت قبل الفجر إلى الخلاء ، تحت التهديد ، ووضعته بدون قابلة . . .

آه ياعليلو . . يارفيقي الطيب . . أنت محظوظ . . وجدت على الأقل من يدفنك . . وأمّا أنا ، ياعليلو ، سأسقط هاهنا . . وسط ضراوة هذا القفر الموحش ،

سأموت وحيداً . . والذئاب . . الذئاب ياعليلو خويا ، ستنهشني ، حتى في موتي . . سأستشهد ، وانا في قمة المقاومة . .

ياعاشور . . ياوليد البلاد . . لماذا لاتستغل آخر نقطة فيك . . الدم مازال يجري في عروقك . . قلبك مازال ينبض ، ولو نبضاً ضعيفاً . . أنفاسك مازالت تتصاعد بصعوبة ، وتهبط ببطء . . الوحل . . يستحيل أن تسلم في الأمر ، وتموت هذه الميتة التي تصادفها لأول مرّة في حياتك . . قاوم ياعاشور . . فنحن لانختلف عن غيرنا إلا في هذه النقطة . . نستغل آخر نفس في حياتنا ، في وقت هم فيه ييأسون ويتركون القضية ، للصدفة . .

عبثاً حاولت مرة ثانية . . ثالثة . . فرابعة . . ف . . هذا الجسد المجروح أصبح كتلة رصاص ، تزن الأطنان . . مربوطة بسلاسل ثقيلة إلى هذا الوحل . .

« الوادي هادىء . . المياه تأكل أطراف الضفة . . »

ليكن ياعاشور . . ليكن . . فبطش هذه الطبيعة المقفرة ، أصعب مني ، وفوق طاقتي . . لاأقاوم . :

سأترك هذه الأمواه تأخذني في رحلتها الأبدية..ابن بركة.. عليلو الزلميط . . ورجال الكومونة . . مازال صراخهم تردده الوديان العريضة الطويلة التي استهلكتها الأنوار المغرية . . كانوا رجالاً وماتوا رجالاً . .

ياعليلو . . في لحظة الموت ، التي تفغر فاها لأبتلاعي.. أطلب منك شيئاً واحداً . . اغفر لي ، إذا كنت قد ارتكبت خطأ في حقك . . فأنت ترى . . وضعي أتعس من وضعك.. فأنا لاأستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ، أو من أجلي . . فأنا في موقف لاأحسد عليه . . أين أنا بالضبط . . من يحدد لي الآن موقعي . . هل البحر مازال بعيداً ؟ ؟ أنت وحدك تعرف لو كنت هاهنا . . لاضير يارفيقي ، إذا كان البحر مايزال بعيداً . . بعيداً . . ومت هذه الميتة الحمراء . . لكن أن يكون البحر ، في متناول كفي ، بعد جهد جهيد ، ولا ألثم زرقته ، فأن أموت في هذه اللحظة خسارة . .

لا . . لاياعاشور . . مادام فيك عرق واحد ، مازال ينبض . . حاول أن تنهض . . قاوم . . ستفلح هذه المرة . .

حاولت عبثاً . . العالم بدأ يغيب عن عيني . . الكلّ بدأ يسقط في مدّ لامتناه . . آه لو أتوصل فقط . . لو أستطيع أن أنقلب على ظهري . .

الشفاه يابسة . . وحيداً . . ألفظ أنفاسي الأخيرة.. أموت وأنا في قمة وعيي . . تضيق أنفاسي . . أحس بشيء ساخن يتزحلق بين أفخاذي . . تتصاعد إلى أنفي رائحة البول . .

وأعاود المقاومة . . محاولة أخرى للانقلاب على ظهري.. أو الوقوف على ركبتي . . وأواصل بعدها المشي زحفاً.. فزرقة البحر في انتظاري . .

* * *

— ٢ —

« ياعاشور . . قبل أن تموت ، أسمع كلمتي الأخيرة.. في الزمن الصعب ، هذا . . قمة البطولة والنضال ، أن لاتيأس ، في عالم كل مافيه يدعو إلى اليأس . . »

يتساقط شيء مالح ، يشبه الابخرة التي تأتي من تنور ساحرة . . بخور ممزوج بروائح النار ، والبارود ، ودم الأرحام المتفسخ ، حين تفسد الولادات . إنه يهبط الآن كقطرات الندى ، التي تعفنت قبل أن تنزل على هذه الأرض فتتحول إلى سموم قاتلة . . آه ياعاشور . . في اللحظة الرائعة التي يتوحد فيها القلب البشري مع الحجر، والوحل والروائح الكريهة ، وصراخات الذاكرة . . ويعانق المرء النهايات بكل فرح وحبور . . تكون البدايات ، ويأتي بعدها ، ذلك الشيء الغامض حاراً ، حاراً كأرياح صحراوية . . وبعدها بارداً . . بارداً ، يتمدد كقطعة ثلج ، في كل الجسم . هو الموت ياعاشور الذي يأتي شاهراً كل أسلحته الفتاكة . .

كنت على ظهري . . بدأت أكتشف هذا العالم ، الذي كان قبل قليل غامضاً . . الوادي . . أشجار صغيرة.. ضباب فوق كل هذه اللوحة . . ربّما هو ضباب الفجر..

وربّما هو ضباب الموت ، الذي بدأ يجتاحك من العينين ياعاشور الماندرينا . .

حاولت أن أملأ نظري ، بكل هذا الجمال الذي بدا مدهشاً . . وبكل هذا العفن الذي يقتلني بالتقسيط والذي بلغ ذروة التعفن . .

في تلك اللحظة . . رأيت امرأة تبكي . . رأيت موكباً جنائزياً . . وكلاباً تنهش عليلو ، وهو يصيح . . رأيت نفسي أتدحرج ، متدلياً ، كالبلوطة على عود مشنقة ، وأرمى عند فوهة البحر ، فيقذفني إلى مكان لم أسقط فيه ، بعد وحتى الآن . . مازلت في الفراغ المطلق . .

رأيت المدينة البحرية ، التي اتهمت بحرقها ، تغرق.. تغرق . . ورأيت من جديد الموكب الجنائزي الكبير المتكون من الأطفال فقط . . رأيت الظلام ، ينزل فوق عيني كجناحي غراب . .

أنا عاشور الماندرينا ، أقسم أني رأيت هذه الأشياء قبل أن أستلقي على رأسي ليطعنني الموت . .

« بوم شت . . بوم شت . . بوم شت . . »

في البداية لم أنتبه . . بعدها كذبت نفسي . . ولكن الصوت بدا لي مألوفاً جداً . .

عاودت من جديد . . حاولت أن أفتح عيني على وسعهما . . حظك الأخير ياعاشور . .

« ززز . . ززز . . ززز . . »

هذا يمكن تحديده بدقة . . أزيز طائرة هليكوبتر ، ماتزال بعيدة ، بعيدة . . لعلها طائرة استكشافية . . لكن ليس هذا هو الصوت الذي سمعته . . يادين الرب . . أتمنى الموت في هذا الوحل ، ولا الرجوع معهم ، ليقدموني على الشاشة بهذا المنظر . . والله يفعلونها . . وحق الله يفعلونها . .

حاولت أن أزحف من جديد . . استطعت هذه المرة أن أقف على ركبتي . .

فاجأني الصوت الأول . .

« بوم شت . . بوم شت . . بوم شت . . »

هو . . هو . . وحق الله هو . . ماذا تنتظر ياعاشور، أرمي بنفسك فيه حتى التهلكة . . تذكرت صوته . . قفز في عيني عظيماً ، عظيماً .. تدحرجت من ذاكرتي الأغنية الجميلة الحزينة التي حفظتها من عمي « جلول » أبو اللويحة . .

« موت لبحار أبويا
لمواج لهبيلة أبويا . .
والبر بعيد . . بعيد
وصياحي طال آبويا . . »

وحق الله هو . . تذكرت كل الأشياء الصغيرة .. اللويحة . . أباها . . الصيادين . . عليلو الحوات . . هو .. هذا هو صوت تكسر الأمواج . . لقد وصلت ياعاشور ! ! ! لقد وصلت ! ! ! لم أدر كيف نهضت ؟ ؟ . . فوُجئت؟؟ وجدت نفسي أجري صوب البحر . . ألبس الوحل والخرق الممزقة . . نسيت أتعابي . . أصيح ملء فمي ، في قمة فَرحي . .

— « البحر . . البحر . . البحر . . »

■ **دمشق/أفريل/١٩٧٩**

الفهرس

١٩٨١/٥/٣٠٠٠

هل يمكن لوقائع هروب صوب البحر أن تؤلف ملحمة انسانية ؟ من كان في شك من هذا فليقرأ هذه الرواية . ولكن هذه الوقائع ليست كل الملحمة ليست الملحمة والسدى ، بل تكاد تكون حجة لرواية سيرة المناضل السجين الهارب من مولده الى منتهى مغامرته، فالروائي قد أمسك بالخيط من آخره ، وأرس عمله على مبدأ الاستذكار والتداعي ، مما يسمح بحضور الازمنة كلها وتداخلها ، وكم في حياة المناضلين من احداث ، وكم فيها من (أوجاع) !

سيلاحظ القارىء كلما تقدم في قراءة هذا الاثر ان المؤلف يمسك بخيوط عمله الروائي امساك الخبير ، وانه يستخدم له أفضل التقنيات حتى خلا عمله من كل ثغرة في هذا المجال .

ولقد ضمت الرواية لوحتين ما نحسب لهما مثيلا في الادب العربي الحديث : الاولى لوحة تظاهرة عمالية ، انتهت بالاشتباك مع زلم السلطة ، وهي لوحة كاملة ، معاناة ودراسة ، وأما اللوحة الثانية فتصور انهيار مصنع قديم على رؤوس عماله ، وتدفق المياه في حناياه وسراديبه ، وتشتت العمـال ، وتخبطهم في الظلمـة ، وصيحات الاستغاثة ومحاولات الاغاثة واختناق الاصوات ، وحشرجة الضحايا كل هذا والانهيار ماض في مسيرته ، سقفا بعد سقف ، جدار بعد جدار .

والخلاصة فالرواية كعمل ينضوي تحت لواء مذهب الواقعية الاشتراكية انجاز كبير .

مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق ـ ١٩٨١

سعر النسخة